دعاء الأنبياء في القرآن الكريم

دراسة بلاغية تحليلية

* من مواليد عام ١٣٩٢هـ بالمملكة العربية السعودية.

• تخرج في كلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بمدينة جدة عام ١٤١٨هـ.

• نال شهادة الماجستير من قسم الأدب والبلاغة بكلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤٢٥هـ بأطروحته: "**شعر الأسر بين أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد**"، كما نال منه أيضا شهادة الدكتوراه عام ١٤٢٨هـ بأطروحته: "**خطب خلفاء بني أمية وأمرائهم: خصائصها الموضوعية وسماتها الفنية**".

• من كتبه وبحوثه المحكمة المنشورة: "**النص القرآني في منظور الدراسة الأدبية الموقف والمنهج**"، "**كنز الإيجاز في شرح علاقات المجاز لحسن جمال الدين الحلبي: تحقيق ودراسة**"، "**خطب الإملاك في التراث الأدبي القديم دراسة تحليلية**".

• البريد الإلكتروني: alsulami101@hotmail.com

الملخص

يتناول هذا البحث دراسة آيات دعاء الأنبياء في القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية فيها تحدث المؤلف عن مقاصد دعوات الأنبياء والمطالب التي أكدوا عليها سواءٌ أكانت هذه المطالب لأقوامهم أم لأنفسهم أم لأهليهم .

ثم تناول الباحث دراسة هذه الآيات دراسة بلاغية تحدث فيها عن البناء اللغوي لأدعيتهم إضافة إلى بلاغة التناسب و التشابه والتنوع .

ثم جاءت الخاتمة وفيها تناول الباحث أبرز النتائج والتوصيات .

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن أفضل ما تفنى فيه الأعمار وتصرف فيه الأوقات دراسة كتاب الله العزيز والتعمق في معرفة بعض أسراره، وكشف بعض درره التي تنوعت وتعددت بتنوع أساليبه وأحكامه.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة ذكر الله فيها جملة من دعوات الأنبياء والمرسلين، ومناجاتهم ربهم وتوسلهم إليه، وانكسارهم بين يديه، في ذلٍ وخضوع، مع كمال أدبهم مع ربهم، وذلك ليتعلم المؤمنون منهم المنهج السديد والمسلك القويم في دعاء الرب سبحانه وتعالى.

والأنبياء هم صفوة البشر، وخير الخلق ، وفي أخبارهم وقصصهم عبر وعظات في مقام التوحيد والعبودية ، وفي مقام الدعوة لله ، والثبات عند المحن والشدائد، وفي مقام الصدق والصبر، والثقة بنصر الله، فدراسة سيرهم تفتح في النفس منافذ الإلهام ؛ فنأخذ عنهم ونتعلم على أيديهم ، ونثبت معهم في رحلتهم إلى الله، إضافة إلى ما في ذلك كله من تسلية المؤمنين وتثبيتهم؛ ومن هنا عنيت في هذا البحث بدراسة أدعيتهم التي كانت حاضرة في جميع مواقفهم .

ولأهمية دعاء الأنبياء الوارد في القرآن الكريم وعظم مكانته، ولإيماني بأثر المنهج البلاغي في الكشف عن المعاني والإقناع بها، ولأهمية الكشف عما في الأساليب البليغة من أسرار ومزايا بلاغية ، والتي يأتي في مقدمتها وذروتها القرآن الكريم، أحببت أن أجعل من آيات دعاء الأنبياء في القرآن موضوعا للدراسة والبحث، وذلك لمعرفة الإعجاز البياني لهذه الآيات، محاولا تدبر الآيات الكريمة

وتجلية مسائل البلاغة فيها والكشف عن أسرارها البيانية، وآيات دعاء الأنبياء – عليهم السلام – كغيرها من آيات القرآن الكريم زاخرة بالإعجاز غنية بالبيان، ولن يستطيع أحد مهما أوتي من قدرة أن يحيط بكل أسرارها ومعانيها.

وقد قيل: « لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله في كتابه، لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه.... وإنما يفهم كلٌّ بمقدار ما يفتح الله على قلبه، وكلام الله غير مخلوق، ولا يبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة »[1].

إطار البحث :

جعلت من آيات دعاء الأنبياء في القرآن الكريم موضوعا لهذا البحث، اجتهدت من خلالها في توظيف مسائل البلاغة وفنونها، لفهم هذه الآيات وتذوقها وتجلية مظاهر الإعجاز فيها، مما يسهم في إثراء الأبحاث التطبيقية المتعلقة بالقرآن الكريم.

منهج البحث :

سأقوم بدراسة دعاء الأنبياء الوارد في القرآن الكريم من خلال المنهج البلاغي التحليلي، الذي يدرس النص القرآني من خلال سياقه ومفرداته وتراكيبه، مع إبراز القضايا البلاغية في مواضعها، ومن خلال سياقها بحسب الموضوعات الواردة في خطة البحث، وقد استعنت في البحث بكتب التفسير وبخاصة تلك التي عنيت بالجوانب البلاغية التطبيقية، بالإضافة إلى جملة من المصادر والمراجع البلاغية، واللغوية، والأدبية المثبتة في آخر البحث.

---

(١) تفسير البسيط – الواحدي، ١/ ٣٤، وهذا النص ينسب إلى سهل بن عبد الله التستري رحمه الله.

خطة البحث :

جعلت هذا البحث في مقدمة وتمهيد وفصلين، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: وفيها بيّنت أهمية الموضوع وإطاره، ومنهجه، وخطته .

التمهيد : وفيه تناولت :

- مفهوم الدّعاء واستعمالاته اللغوية وأنواعه.
- منزلة دعاء الأنبياء في القرآن الكريم.

الفصل الأول : مقاصد دعاء الأنبياء، وفيه مبحثان:

المبحث الأول : ما يتعلق بأقوامهم وأممهم وفيه مطلبان:

المطلب الأول : الدعاء لأقوامهم وأممهم بالهداية والخير.

المطلب الثاني : الدعاء على أقوامهم بالهلاك والعذاب.

المبحث الثاني : ما يتعلق بأنفسهم وأهليهم، وفيه مطلبان:

المطلب الأول : ما يتعلق بالنفس.

المطلب الثاني : ما يتعلق بالأهل.

الفصل الثاني : الخصائص البلاغية لدعاء الأنبياء في القرآن، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : بناء لغة دعاء الأنبياء.

المبحث الثاني : بلاغة التناسب في دعاء الأنبياء.

المبحث الثالث : أسرار التشابه والتنوع في دعاء الأنبياء.

الخاتمة : وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

الفهرس.

التمهيد

أولاً : مفهوم الدعاء واستعمالاته اللغوية

الدعاء في اللغة: مأخوذ من مادة (دعو) التي تدلّ في الأصل على «إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك»[(١)].

وهو مصدر لفعل دعا يدعو دعواً ودعاءً[(٢)].

يقال: دعا الرجل دعواً ودعاءً: ناداه، والاسم الدعوة، ودعوت فلاناً أي صحت به واستدعيته[(٣)].

وقد ورد الدعاء في اللغة بعدة معانٍ منها:

١ – العبادة كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس:١٠٦].

٢ – الاستغاثة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٣]. أي استغيثوا بآلهتكم[(٤)].

٣– التوحيد كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن:١٩]. أي: يقول: لا إله إلا الله ويدعوه[(٥)].

٤ – السؤال والطلب كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]. أي: سألني وطلبني.

٥ – النداء ومنه قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر:١٠]. قال

---

(١) معجم مقاييس اللغة / ٢٧٩ .

(٢) جمهرة اللغة ـ ابن دريد، ٢/ ٢٨٣.

(٣) لسان العرب ، ١٤/ ٢٥٧ مادة (دعا) .

(٤) ينظر : معاني القرآن – الفراء ١/ ١٩.

(٥) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٢٣/ ٦٦٨. وينظر: الدر المنثور، للسيوطي، ٨/ ٣٠٨ .

الراغب: « الدعاء كالنداء، إلا أن النداء قد يقال بـ"ياء" أو "أيا"، ونحو ذلك من أدوات النداء من غير أن يضم إليه الاسم، أما الدعاء فلا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم، نحو: يا فلان، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر» [(١)].

وأمَّا الدعاء في الاصطلاح فهو: التضرع إلى الله والافتقار إليه بالسؤال والطلب؛ لتحقيق المطلوب أو دفع المكروه بصيغة طلبيةٍ أو خبرية[(٢)].

ثانياً: أنواع الدعاء :

ينقسم الدعاء باعتبار معناه إلى قسمين: دعاء العبادة والثناء، ودعاء الطلب والمسألة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة ودعاء المسألة» [(٣)].

وكلٌّ من نوعي الدعاء متلازمان؛ لأن الله - تعالى- يدعى للنفع والضر. دعاء المسألة، ويدعى خوفاً ورجاءً دعاء عبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة، مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة[(٤)]. والمتأمِّل في منهج القرآن في عرض آيات الدعاء يلحظ مجيء دعاء الثناء تارة بين يدي دعاء المسألة وتارة في ثنايا دعاء المسألة وتارة ينفرد أحدهما عن الآخر.

وأما باعتبار صيغه فينقسم إلى نوعين :

١ - صيغة الطلب: وهي إنشاء الدعاء بصيغة (افعل) أو (لا تفعل) ، كدعاء

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ١٦٩- ١٧٠.

(٢) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٥/ ١٩، وينظر: فتح الباري لابن حجر: ١١/ ٩٥. ولسان العرب لابن منظور (دعو): ١٤ / ٢٥٧ .

(٣) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٠/ ٢٣٧.

(٤) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم ٣/ ٥١٤.

موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾[الأعراف:١٥١]، وكقول زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩].

٢- صيغة الخبر: وهي أن يتضمن الدعاء ثناء ووصفاً لحال المسؤول، أو وصفاً لحال الداعي أو الأمرين معاً.

فأمّا وصف حال المسؤول فذلك كدعاء آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف:٢٣]. فهذا ليس صيغة طلب، وإنما هو إخبار عن الله – تعالى- أنه إن لم يغفر له ويرحمه فسيكون من الخاسرين.

وأمّا وصف حال الداعي فذلك كقول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص:٢٤].

وأمّا وصف الحالين معاً فذلك كقول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٣]. فوصف نفسه وحاله بما يوجب الإجابة، ووصف ربه بكمال الرحمة، وهذا أدعى للقبول والظفر بالمطلوب.

منـزلة دعاء الأنبياء في القرآن الكريم :

في القرآن الكريم آيات كثيرة ذكر الله تعالى فيها جملة من أدعية الأنبياء، ومناجاتهم ربّهم ،وتوسلهم إليه، وانكسارهم بين يديه، في ذل وخضوع ومحبة وإجلال، مع كمال أدبهم وحسن توسلهم لربهم ؛ ليتعلم المؤمنون منهم حسن الصلة بالله وكمال الإقبال عليه، وأدب الدعاء والمناجاة لله تبارك وتعالى.

وقد أمر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين باتباع سنتهم، ولزوم نهجهم والتأسي بهم؛ فقال سبحانه وتعالى بعد أن ذكر طرفاً من أخبارهم، وأوصافهم العظيمة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠].

وأنبياء الله الكرام هم صفوة الخلق، وفي أخبارهم وقصصهم دروس وعظات في

مقام تحقيق التوحيد والعبودية لله، وفي مقام الدعوة إلى دينه، والثبات عند المحن والشدائد، وفي مقام التوكل عليه، وتفويض الأمر إليه، وما في ذلك كله من تسلية المؤمنين وتثبيتهم، وتوجيههم للاقتداء بهم، ولهذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[يوسف:١١١].

وقد وصف الله أنبياءه وصفوة خلقه بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[الأنبياء:٩٠].

وهذه الآية الكريمة تصف حالهم وهم يدعون ربهم في جميع أحوالهم متذللين خاضعين. وقد فصَّل الله لنا جملة من تلك الدعوات التي تبرز جانباً من ابتهالاتهم لربهم سبحانه وتعالى، وطمعهم في فضله، ورحمته وفزعهم إليه في جميع أحوالهم، وذكر تعالى إجابته لدعواتهم، وتحقيقه لرغباتهم وتيسيره لأمورهم.

وقد ألهم الله تبارك وتعالى أنبياءه الكرام الدعاء والطلب، وعلَّمهم كيف يلتجئون إليه، وكيف يثنون عليه ثناء يليق بجلاله وعظيم سلطانه. فـ« لقصورهم وعجزهم تولى الله الوكيل على كل شيء الإنباء عنهم بما كان يجب عليهم مما لا يبلغ إليه وُسع خلقه، وجعل تلاوتهم لما أنبأ به على ألسنتهم نازلاً لهم منزلة أن لو كان ذلك النطق ظاهراً منهم لطفاً بهم، وإتماماً للنعمة عليهم؛ لأنه تعالى لو وكلهم في ذلك إلى أنفسهم لم يأتوا بشيء تصلح به أحوالهم في دينهم ودنياهم ، ولذلك لا يستطيعون شكر هذه النّعمة إلا أن يتولى هو تعالى بها يلقنهم من كلامه مما يكون أداء لحق فضله عليهم »(١).

وقد خصَّ الله – سبحانه وتعالى– نبينا الكريم محمداً ﷺ من بين سائر الأنبياء

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي: ١/ ١٧ .

بأن أرشده، وعلَّمه أدعية مخصوصة، وأمره أن يدعو بها، وجعل ذلك الدعاء المأمور به نازلاً منه منزلة أن لو كان ذلك النطق ظاهراً منه إكراماً له، وإتماماً للنعمة عليه.

وقد جاءت دعوات نبينا محمد ﷺ مصدَّرة بأمر الله تبارك وتعالى له كقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾[الإسراء:٨٠]، وقوله: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[المؤمنون: ٩٣-٩٤] ، وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾[المؤمنون: ١١٨] ، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه:١٤].

وعندما اشتد إعراض المشركين وتكذيبهم للنبي ﷺ أرشده ربُّه أن يدعو بهذا الدعاء: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾[التوبة:١٢٩].

وأمره أن يدعو بتفويض الأمر إليه بعد إصرار المشركين على الكفر والجحود، فأرشده إلى أن يقول: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[الزمر:٤٦].

ولا نكاد نجد قصة من قصص الأنبياء -عليهم السلام- إلاّ وفيها دعاء وابتهال، وهذا يدلّ على أن الدعاء يعدّ أحد أهم المعاني الكبرى في حياتهم، وأنه مكوِّن أساسي من مكونات رسالتهم، وكاشفٌ -في الوقت ذاته- عن جوانب مهمة في شخصياتهم الموصولة بالله ﷻ، وعن العناية الربانية التي رافقتهم وقادتهم إلى النصر والنجاة.

ولهذه الأهمية والمكانة - الظاهرة - عني السلف الصالح ،وعلماء الأمة بربط الناس بأدعية الأنبياء - عليهم السلام- وما ورد في القرآن الكريم؛ لما في ذلك من

كمال الاقتداء والتأسي بهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَيَنْبَغِي لِلْخَلْقِ أَنْ يَدْعُوا بِالْأَدْعِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَإِنَّ ذَلِكَ لا رَيْبَ فِي فَضْلِهِ وَحُسْنِهِ وَأَنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» (١).

ودعوات الأنبياء الواردة في القرآن الكريم من أعظم الأدعية وأجمعها، فلا ينبغي لأحد العدول عنها إلى غيرها؛ ولهذا قال القرطبي رحمه الله: « فعلى الإنسان أن يستعمل ما في كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويدع ما سواه، ولا يقول أختار كذا؛ فإن الله تعالى قد اختار لنبيه وأوليائه وعلمهم كيف يدعون» (٢). ومن لزم الدعاء المأثور الوارد في كتاب الله فقد جاء بأصحّ المعاني، وأسمى المقاصد، وسلم من الخطأ والزلل.

وذلك لأن الله - تبارك وتعالى- « علَّم الدعاءَ في كتابه لخليقته، وعلَّم النبيُّ ﷺ الدعاءَ لأمّته، واجتمعت فيه ثلاثة أشياء:
العلم بالتوحيد، والعلم باللغة، والنصيحة للأمَّة» (٣).

كما أنَّ المتدبِّر لمجموع دعواتهم يجد نفسه أمام فقه عظيم، وأدب جم وأسلوب بياني رفيع، يتميز بخصائص فريدة عالية في بلاغته وفصاحته، مع سمو غاياته وشريف مقاصده.

* * *

(١) مجموع الفتاوى: ١/ ٣٤٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٤/ ٢٣١.
(٣) الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية، لمحمد بن علاّن المكي: ١/ ١٧.

الفصل الأول
مقاصد دعاء الأنبياء

المبحث الأول : ما يتعلق بأقوامهم وأممهم

المطلب الأول : الدعاء لأقوامهم وأممهم بالهداية والخير

الذي يتأمل دعاء الأنبياء لأقوامهم سواء بطلب الهداية التي تتعلق بالدين والإيمان بالله وحده، أو بطلب الأرزاق والخيرات التي تتعلق بأمور المعاش والحياة الدنيا يجد أنّ ذلك جاء من سيدنا إبراهيم وسيدنا عيسى - عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- وهو عند كلٍّ منهما يختلف منه عند الآخر.

فدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام تكرر في موضعين، بينما دعاء عيسى عليه السلام جاء في موضع واحد، كما أنَّ دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام أكثر وأشمل.

أمّا بالنسبة لدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام فنجد أنه جاء في سورة البقرة، وفي سورة إبراهيم، وفي هذين الموضعين اختلفت مطالبه لأمته ومن تبعه من المؤمنين. والمتأمِّل في هذين الدعاءين يلمس التنوع البديع الذي تصرف حسب السياق والموضوع، فالدعاء في سورة البقرة جاء في سياق ما امتنَّ الله به من جعل الكعبة مثابةً للناس وأمناً، وقد أخبر الله -سبحانه وتعالى- ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦].

ففي هذه الآية بدأ إبراهيم عليه السلام الدعاء لأمته بنداء الرب عز وجل : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ وذلك بحذف حرف النداء (الياء)، والأصل (يا رب)، وإنما قدّرت (يا) دون غيرها؛ لأنـها «تـختص دون سواها بأنـها هي وحدها التي يجوز حـذفها مع

المنادى، عندما لا يكون هناك مانع من الحذف»[1]. وهذه الأداة وضعت أصلاً لنداء البعيد، والله تبارك وتعالى قريب من خلقه فكيف ينادى بأداة النداء الخاصة بالبعيد؟

وجواب ذلك أن يقال: إنّ في هذا إشارة إلى بُعْد منـزلته سبحانه ورفعة مكانته فينـزل بعد منزلته منـزلة بعد مكانه[2].

والحكمة من حذف حرف النداء الدلالة على التعظيم، والتنـزيه واستشعار الداعي قرب المنادى؛ لأنَّ النداء يتشرَّب معنى الأمر، فإذا حذفت منه أداة النداء زال معنى الأمر وتمخض للتعظيم والإجلال[3]. وربما نلمس أن للحذف دلالة نفسية في نفس البليغ، وهو استشعاره «أنّ المنادى في أقرب منازل القرب من المنادي حتى لم يحتج إلى ذكر أداة نداء له لشدّة قربه، وهذا يليق بمقام دعاء الرب جل وعلا»[4].

و﴿رَبِّ﴾ منادى أصله: (ربِّي) فحذفت منه ياء المتكلم تخفيفاً، وهو كثير في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم، وعُوِّض عن ياء المتكلِّم بالكسرة[5]، ولعلَّ السرَّ في ذلك أنَّ كلمة (ربِّ) من أكثر الكلمات استعمالاً في الدعاء فَرُوعِيَ فيها الخفَّة مما يجعلها أطوع في اللسان، وأسهل في النطق[6]. وإيثار لفظ الرَّبّ على غيره من أسماء الله الحسنى ومنها لفظ الجلالة(الله) في الدعاء؛ «لما في ذلك من

---

(١) النداء في اللغة والقرآن، أحمد محمد فارس: ص٨٠ .

(٢) المعاني في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين،ص ١٩٠ .

(٣) من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن)، عبد الفتاح لاشين، ص ١٧٧ .

(٤) البلاغة العربية، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ١/ ٢٤٢ .

(٥) ينظر:شرح المفصل لابن يعيش ، ٢/ ١١ .

(٦) خصائص التعبير القرآني، عبد العظيم المطعني: ٢/ ٨ .

تلطف السؤال والنداء بالوصف الدال على قبول السائل، وإجابة ضراعته»[(١)].

ولأنّ إجابة الدعاء من مقتضى الربوبية والإقرار بتفرد الله بإجابة الدعاء من توحيده في ربوبيته ذلك أن «الإله هو المعبود الذي يستحقّ أن يعبد، والرب هو الذي يربّ عبده فيدبره؛ ولهذا كانت العبادة متعلقة باسمه: (الله)، والسؤال متعلقاً باسم الرَّبِّ»[(٢)].

وتنكير ﴿بَلَدًا﴾ في هذا الموضع لبيان المبالغة والتعظيم أي: اجعله من البلدان الكاملة في الأمن، و﴿ءَامِنًا﴾ اسم فاعل أي: ذا أمن كاملٍ، كقوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[الحاقة:٢١][القارعة:٧]. وعليه يكون الإسناد مجازاً عقليّاً حيث نسب الأمن إلى الحرم وهو لأهله، وعلاقته المفعولية، ويمكن أن يكون المراد «آمناً مَنْ فيه» أي: يأمن من فيه من الخوف والرعب كقولهم: «ليل نائم» فيكون الإسناد - أيضاً- مجازاً عقليّاً وعلاقته حينئذ المكانية[(٣)].

ولما دعا الخليل عليه السلام بطلب الأمن أتبع ذلك بطلب الرزق فقال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وإنما دعا الله أن يرزق أهل مكة من الثمرات؛ لأن مكة لم يكن بها زرع ولا ثمر ولا ماء، ورِزْقُ أهل البلد من الثمرات ظاهر معلوم، فالثمرات تجنى وتجبى إليه من كل مكان.

وقد خصَّ الخليل المؤمنين بدعائه فقال: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وذلك «إظهار لشرف الإيمان وإبانة لخطره واهتمام بشأن أهله»[(٤)]. والاسم الموصول ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾ بدل من ﴿أَهْلَهُۥ﴾ في قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ

---

(١) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي ١/ ٥٥٤ .

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (ت٧٢٨هـ) : ٥/ ٢٥٣.

(٣) ينظر: الكشاف ، للزمخشري : ١/ ٢١٢.

(٤) تفسير أبي السعود: ١/ ١٥٩ .

ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وهذا بدل بعض من كل، أو بدل اشتمال مخصص لما دلَّ عليه المبدل منه وفائدته: «أن يصير مذكوراً مرتين، إحداهما بالعموم السابق في لفظ المبدل منه، والثانية بالتنصيص عليه، ويتبين أنَّ المبدل منه إنَّما عني به وأريد البدل فصار مجازاً إذا أريد بالعام الخاصّ»[1]. والتخصيص هنا احتراز حَسَن من الخليل عليه السلام وذلك لأنه سبق أن دعا ربَّه أن يجعل من ذريته أئمة للناس دون أن يخص المؤمنين، فكان جواب الله تعالى له أنه لا يعطي هذا العهد من الإمامة والنبوة للظالمين كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فكان من المناسب أن يحترز الخليل عليه السلام بعد هذا الجواب عندما دعا ربّه أن يرزق أهل بيته الحرام من الثمرات، فخَصَّ المؤمنين بدعائه دون غيرهم مبدلاً إياهم من لفظ (أهل) الدال على العموم تبعاً لردّ الله عليه في الموضع الأول، ولكن الأمر كان مختلفاً في الموضعين. ففي الموضع الأول يتعلق الطلب بأمر النبوة، والهداية، وهما أمران لا ينالهما إلا من اصطفاه الله من عباده المؤمنين، فوجب التخصيص. وأمّا الطلب الثاني فهو يتعلق بالرزق، وهو أمر كفله الله لجميع خلقه فكان من المناسب في هذا الموضع أن ينبِّه الله عز وجل نبيَّه عليه السلام إلى أن رزقه شامل للجميع فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾.[2]

ونلحظ أن دعاء الخليل عليه السلام في هذه الآية يتعلق بأمرين عظيمين في حياة الناس هما : الأمن والرزق، وتقديم الدعاء بطلب الأمن من باب تقديم ما هو أَوْلَى، وقد كان من عادة العرب الفصحاء «إذا أخبَرَتْ عن أمرٍ ما، وأناطت به حكماً، وقد يشركه غيره في ذلك الحكم أو فيما أخبر به عنه، وقد عطف أحدهما على

---

(١) البحر المحيط، ١/ ٥٥٥.

(٢) ينظر : أضواء البيان ، للشنقيطي ، ٣/ ١٣٤ .

الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب فإنهم - مع ذلك - إنما يبدؤون بالأهمّ والأولى»[١].

وفائدة تقديم الأمن على الرزق ظاهر؛ لأنَّ الإنسان إذا عاش في بلدٍ مطمئن آمن أعانه ذلك على المحافظة على دينه وعبادة ربِّه وإصلاح أمور معاشه دون خوف من أحد في حين إذا انتفى الأمن «لم يفرغ الإنسان إلى شيء آخر من أمور الدين والدنيا»[٢].

ولمَّا دعا الخليل ربَّه بالأمن لمكَّة والرزق لأهلها وأن يجعل من ذريته أمة مسلمةً ختم الدعاء بما فيه سعادة أمته في الدنيا والآخرة بأن يبعث فيهم رسولاً منهم فشمل دعاؤه لهم بالأمن والرزق والهداية فقال: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٩].

والدعاء بلفظ ﴿ رَبَّنَا ﴾ خاصّة على سبيل الاستعطاف؛ طلباً لرحمة الله ورعايته، وتكراره هنا بعد وروده سابقاً بدون حرف النداء للمبالغة في تصوير قرب المنادى ﴿رَبِّ ﴾ الذي فيه معاني التربية والعناية، واللطف، واستحضار هذه المعاني في قلب الداعي يجعله أكثر قرباً من ربه.

وإيثار الفعل (ابعث) على ما سواه فيه دقّة لا نعهد مثلها إلا في القرآن الكريم، فالفعل (ابعث) إضافة إلى دلالته على معنى الإرسال نجده يحمل معاني الإثارة والإيقاظ. وكل شيء بعثته فقد أثرته، والبعث من الله الإحياء[٣]. وهذه المعاني

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ٣/ ٢٣٥.
(٢) فتح القدير، للشوكاني، ٣/ ١٦٠.
(٣) ينظر: لسان العرب، ٢/ ١١٦ مادة (بعث).

تتوافق ومهمة الأنبياء عليهم الصلاة السلام.

وقد فصَّل سيدنا إبراهيم عليه السلام ما يأتي به الرَّسول من خير لمن أرسل إليهم بقوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة:١٢٩] وكل هذه الأمور فيها من الخير الكثير الذي يستحقونه معه رحمه الله تعالى ولطفه بهم.

وأمَّا دعاء الخليل عليه السلام في سورة إبراهيم فجاء في سياق بيان دلائل القدرة الدالة على وحدانية الله تعالى والامتنان بنعم الله على عباده، وقد استهلَّ هذا الدعاء بقوله:﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم : ٣٥-٣٦].

والابتداء في هذا الدعاء بطلب الأمن لأمته يدلّ على أهميته بالنسبة إلى غيره من النعم كما سبق بيان ذلك، وقد قرن الخليل إلى جانب ذلك أمراً في غاية الأهمية لأمته وهو تحقيق العبودية لله تعالى، والبعد عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، والمراد ببنيه: أبناء صلبه، وقيل: جميع نسله تعميماً للخير فاستجيب له في بعضهم(١)، ويؤكد الخليل في هذا الدعاء على نعمة الهداية وأن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته، إلى نور الإيمان بالله وتوحيده، فيخرج من التيه والحيرة والضلال، إلى الطمأنينة والاستقرار والهداية.

وفي إسناد الإضلال إلى الأصنام مجاز فقد «أسند الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل؛ لأنها سبب إضلالهم فكأنها أضلتهم»(٢)، وهو مجاز عقلي علاقته

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٣/ ٢٣٨ .
(٢) فتح القدير: ٣/ ١٦٠.

السببية، وفي ذلك إشارة إلى قوة السبب في إضلال النَّاس وتغيير معتقداتهم.

وتقييد الإضلال بـ﴿كَثِيرًا﴾ التي جاءت نكرة تدلّ على العموم يشعرنا بكثرة الناس الذين أضلتهم الأصنام إضافة إلى أنها تدلّ على وجود عدد قليل من الناس الذين كانوا في منأى وسلامة من إضلال الأصنام.

ويتوالى دعاء الخليل عليه السلام فيقسم أمته بعد ذلك إلى قسمين فيقول: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فـ(من) في قوله ﴿مِنِّي﴾ يحتمل أن تكون للتبعيض فيكون ذلك على التشبيه والمعنى: فمن تبعني، وكان حنيفاً مسلماً ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: هو بعضي «لفرط اختصاصه بي وملابسته لي»[1]، وجمال التشبيه هنا يكمن في كون التابع بعضاً من متبوعه لفرط اختصاصه به.

ويحتمل أن تكون اتصالية، أي فإنه متصل بي لا ينفكّ عني في أمر الدين وتسميتها اتصالية؛ لأنه يفهم منها اتصال شيء بمجرورها[2].

والتأكيد في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ يبين عظم رغبة الخليل عليه السلام في تبعية أمته له يوم القيامة، وهذا الأسلوب وإن أفاد الإخبار فإنَّ القصد منه الدعاء لأمته بتبعيتهم له في الآخرة.

ونلحظ جمال التعبير في الطباق المعنوي بين ﴿تَبِعَنِي﴾ و﴿عَصَانِي﴾ فالاتباع طاعة وعدم الاتباع معصية مما ساهم في إبراز المعنى في أجلى صورة وأوضح بيان، فالضد يظهر حسنه الضدّ ويجعل صورته حاضرة في الذهن. وقدم ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ على ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾؛ لأنّ هذا هو الأهمّ بالنسبة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وهذا ما يريده

(١) الكشاف: ٢/ ٥٢٤.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود، ٥/ ٥١.

وتتعلق به نفسه، بخلاف المعصية فهي مكروهة عنده مؤخرة في نفسه، فلذا أخرها في اللفظ، حتى يتلاءم ترتيب الكلام مع ما في الجنان.

ومن دعوات الأنبياء لأممهم وأقوامهم، ما جاء على لسان عيسى عليه السلام في قول الله - تبارك وتعالى-: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة:١١٤].

وهذا الدعاء جاء بناءً على طلب الحواريين من عيسى عليه السلام كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [المائدة:١١٢].

وكان هذا السؤال منهم في ابتداء أمرهم قبل استحكام إيمانهم ومعرفتهم بالله(١).

ولما كان سؤال الآيات منافياً لأدب الانقياد والإذعان لأمر الله المطلق وعظهم عيسى عليه السلام بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:١١٢] فأخبروه أنّ مقصودهم من سؤال المائدة الأكل منها وزيادة الإيمان واليقين بصدق ما جاء به حين يرونها أمامهم فيكون إيمانهم عن اليقين؛ فـ«تطمئن قلوبهم بسكون الفكر إذا عاينوا هذا المعجز العظيم النازل من السماء»(٢).

فلمّا اطمأنَّ عيسى عليه السلام إلى مقصودهم دعا الله ـ تبارك وتعالى ـ لقومه بأن ينزّل عليهم هذه المائدة فيكون وقت نزولها عيداً وموسماً يتذكرون فيه قدرة الله تعالى، ثم سأل ربَّه الرزق له ولقومه، فكان دعاء عيسى عليه السلام بنزول المائدة على قومه لهاتين المصلحتين « مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٦٤.

(٢) البحر المحيط، ٤/ ٥٩.

وهي أن تــكون رزقاً»[١].

وفي هذه الآية استهل عيسى عليه السلام دعاءه لقومه بنداء الرب بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ وهي في الأصل «يا الله» فلما كثر النداء بها حذف منها حرف النداء الياء، ثم عوض عنه بالميم[٢].

ونستشعر في ابتداء الدعاء بـ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ نوعاً من الإجلال لا توجد في لفظ «يا الله» وكأن هذا اللفظ تتهيّأ به نفس المؤمن لمناجاة الله في خشوع وتبتل وكمال ثقة في أنه سبحانه قريب من عبده إذا دعاه.

و ﴿رَبَّنَآ﴾ نداء ثانٍ، وقد جمع عيسى عليه السلام بين النداء باسم الذات الجامع لصفات الجلال ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ والنداء بوصف الربوبية له وللحواريين ﴿رَبَّنَآ﴾ ،وذلك استعطاف يوحي بتذلل العبد لخالقه، والتأكيد على إظهار الرغبة الملحة في إجابة الدعاء.

وتقديم شبه الجملة ﴿عَلَيْنَا﴾ على قوله: ﴿مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛لإفادة التخصيص والقصر أي: أنزل علينا لا على غيرنا، كما أنّ في هذا التقديم تشويقاً إلى المؤخر الذي حقه التقديم؛ لأنّه إذا أخر تبقى النفس مرتقبة إيراده، ومتشوقة إلى معرفته.

وقوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: يكون يوم نزولها عيداً بأن يجعلوا اليوم الموافق يوم نزولها من كل سنة عيداً، فإسناد العيد للمائدة إسناد مجازي، وإنما العيد اليوم الموافق ليوم نزولها[٣]، وإنما أسند ذلك إلى المائدة لأن شرف اليوم مستعار من شرفها[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي: ٢٤٩.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٢/ ٢٤٢.

(٣) التحرير والتنوير: ٧/ ١٠٨.

(٤) تفسير أبي السعود: ٣/ ٩٨.

وتقديم الجار والمجرور ﴿لَنَا﴾ على ﴿عِيدًا﴾ يفيد معنى القصر والاختصاص أيضاً، وقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدل من قوله: ﴿لَنَا﴾ وقد أفاد تأكيد الإحاطة والشمول.

واختيار عيسى عليه السلام يوم نزول المائدة ليكون عيداً لأمته، فيه إشارة إلى «ابتهاج الروح بالنّعمة لا من حيث إنّها نعمة بل من حيث إنها صادرة عن المنعم»[(١)].

وقد استعير لفظ العيد للسرور وأدخل المشبه في المشبه به حتى صار من جنسه وأصبح يعبر عن الفرح والابتهاج بالعيد «والاستعارة أبلغ؛ لأنّ العادة جرت في الأعياد بتوفير السرور عند الصغير والكبير، فتضمن من معنى السرور ما لا تتضمنه الحقيقة»[(٢)]، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

وفي قوله: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ نلمس إيثار عيسى عليه السلام للفعل ﴿ارزقنا﴾ دون سواه من مثل «أعطنا» أو «امنحنا» ؛وذلك لأن الرزق عطاء الله عز وجل الحلال الذي يجري على الإدرار[(٣)]، وهو نوعان: ظاهر للأبدان كالأقوات ونحوه، وباطن للقلوب والنفوس كالإيمان والمعارف والعلوم[(٤)].

وقد ختم الدعاء بما يؤكد مضمون طلبه فقال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ، وهذا الختام تذييل جارٍ مجرى التعليل أي: أنت خير من يرزق لأنّك خالق الأرزاق ومعطيها بلا عوض. ويبرز هذا التأكيد من خلال ضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾ والقصر المستفاد من خير الرازقين، إضافة إلى صيغة التفضيل في ﴿خَيْرُ﴾ والمبالغة المستوحاة من دخول (أل) في قوله: ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ .

---

(١) مفاتيح الغيب ، للرازي ، ١٢/ ١٠٩ . وينظر البحر المحيط: ٤/ ٦١.

(٢) الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري: ص ٢٦٨.

(٣) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري ص ١٦٠.

(٤) ينظر: لسان العرب، ١٠/ ١١٥، مادة (رزق).

وفي هذا الختام ما يسمى بـ «التصدير» أو «ردّ العجز على الصدر» وهو في النثر: «أن تجعل أحد اللفظين المكررين المتفقين في اللفظ والمعنى، أو المتجانسين وهما المتشابهان في اللفظ دون المعنى، أو الملحقين المتجانسين وهما اللفظان اللذان يجمعهما الاشتقاق أو شبهه، في أول الفقرة واللفظ الآخر في آخرها» (١).

والتوافق هنا بين الفعل ﴿ ارزقنا﴾ ولفظ ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أضفى على جوّ الدعاء رقة وعذوبة، وأكد حاجة عيسى عليه السلام إلى كرم الله تعالى وإجابة دعائه.

المطلب الثاني: الدعاء على أقوامهم بالهلاك والعذاب

لئن كان في دعاء الأنبياء السابق رقّة وعذوبة، ففي بعض أدعيتهم على أقوامهم قوّة وشدة يقتضيها المقام ويستدعيها الصراع بين أهل الإيمان وأهل الكفر والعناد.

ومن تلك الأدعية دعاء نوح عليه السلام على قومه، فبعد أن تلقى قومُه دعوتَه بالكفر والإعراض، دعا عليهم بالهلاك والعذاب.

وقد قصَّ الله عز وجل ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾[نوح:٢١-٢٧].

وهذا الموقف من نوح عليه السلام لا يمثل موقفه العام من قومه، فموقفه منهم الإشفاق عليهم، وحرصه الشديد على هدايتهم بسلوك جميع أنواع الطرق، وشتى

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم، ٣/ ٩٤.

الوسائل، فقد مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهم يتمادون في غيهم ويزدادون في كفرهم، وقد صوّر نوح ذلك الجهد وتلك المعاناة في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح:٥-٩].

ولَمَّا يئس من إيمانهم، وضاق بهم ذرعاً، وأوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦]، دعا عليهم بالهلاك والعذاب.

استهل نوح عليه السلام دعاءه بقوله: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ وفي هذه البداية نلحظ أنّه بدأ بمناجاة الله بلفظ ﴿رَبِّ﴾ المشعر بالقرب؛ والغرض من ذلك إظهار «الشكاية وإبداء العجز واليأس منهم وطلب النصرة عليهم»(١).

وأكّد ذلك بحرف التوكيد (إنَّ) والضمير (هم)، وليس الغرض منه إخبار الله تعالى بأنهم عصوه لعلمه عليه السلام أن الله عالم بذلك مطلع على أحوالهم، وكان مقتضى الظاهر أن يلقى الخبر غير مؤكد، ولكنّه ساقه بهذا التأكيد إخراجاً للخبر عن مقتضى الظاهر.

وتأمَّل جمال الطباق بين ﴿عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟﴾ وهو تعبير مشرق من وجوه النظم القرآني المؤثر في النفس يصور حالة نوح عليه السلام ومعاناته مع قومه.

وفي قوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ إطناب، والإطناب: «زيادة اللفظ على المعنى لفائدة»(٢)، حيث عطف بالخاص على العام، فالأصنام المخصوصة بالذكر داخلة في ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ وبذلك تكون الأصنام

(١) روح المعاني للألوسي، ٢٩/ ٧٨.

(٢) المثل السائر لابن الأثير:٢/ ١٢٠. وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني: ١/ ١٨٦.

قد ذكرت مرتين، مرة تحت العام، وأخرى على جهة الخصوص، والغرض من ذلك إظهار مكانة هذه الأصنام، وعظيم شأنها في قلوب قوم نوح.

ومن أسلوب هذا الدعاء البليغ العدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ بعطفه على قوله: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ فكان مقتضى الظاهر التعبير عنهم بالضمير، فعدل عن الإضمار إلى الإظهار، وسرُّ العدول إلى الإظهار «إشعار باستحقاقهم الدعاء عليهم وإبداء لعذره عليه السلام وتحذير ولطف لغيرهم»[1].

وربما أشكل على بعض البلاغيين هذا العطف؛ لأنه من عطف الإنشاء على الخبر وهو محظور في قواعد البلاغيين، ولا يجوز العمل به، ولكنَّ المتأمِّل يلحظ أنّ جملة ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ليس المقصود بها الإخبار بل الشكاية والإعلام بعجزه ويأسه منهم فهو طلب للنصرة عليهم، وعليه تكون الآية كناية عن قوله: اخذلهم وانصرني وأظهر دينك ونحوه، فيكون من عطف الإنشاء على الإنشاء، ويؤيد ذلك أن الله تعالى سمَّى مثل هذا التعبير دعاء كما في قوله: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾[الدخان:٢٢]، وهذا ما ذهب إليه شهاب الدين الخفاجي في حاشيته[2].

ثم اشتدّ دعاء نوح عليه السلام على قومه ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[نوح : ٢٦-٢٧].

وجملة ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ ﴾ عطف على جملة ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾ وأعيد فعل "**قال**" لوقوع الفصل بين أقوال نوح عليه السلام بجملة ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ ﴾ [نوح:٢٥] وقرنت بواو العطف؛ لتكون مستقلة فلا تتبع جملة ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾وذلك للإشارة إلى أنّ دعوة نوح عليه السلام حصلت بعد شكايته بقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾[3].

---

(١) تفسير الألوسي: ٢٩/ ٧٨.

(٢) ينظر: حاشية الخفاجي على البيضاوي : ٨/ ٢٥٣ .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢١٣.

وفي إظهار اسم (نوح) في الآية رغم ذكره سابقاً تشريف لعبده بذكر اسمه صريحاً.

وفي قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دون قوله مثلاً «من قومي» ما يدلّ على أنّ موقفه لم يكن مع قومه فحسب، ولو كان كذلك لأشعر برغبته في الانتقام منهم والتشفي بهلاكهم، ولكنّ موقفه كان مع الكفر وأهله، وبهذا يتضح أن دعاء سيدنا نوح عليه السلام إنما كان لمصلحة دينية محضة.

و (الدَّيَّار) من الأسماء التي لا تستعمل إلا في النفي العام يقال: ما بالدّار ديّار أو ديُّور أي: ما بها من أحد، وهو فيعال من الدار أو من الدور[1]، وفي هذا اللفظ كناية لطيفة والمراد به هنا الإنسان كأنّه قيل: لا تذر على الأرض من الكافرين من يسكن داراً أو لا تذر عليها من الكافرين مَنْ يدور ويتحرك[2].

ثم علل الدعاء عليهم بقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾. وهذا التعليل «اعتذارٌ مما عسى أن يقال: من أن الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن مما لا يليق بشأن الأنبياء عليهم السلام»[3].

وفي قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ لفظان موحيان، فالفاجر هو المنبعث بقوّة لارتكاب الجرائم والظلم والطغيان[4]. والكَفّار، هو المبالغ في كفره جحوداً للحقّ، وتغطية لأدلته، بالأكاذيب والجدال بالباطل[5].

والمعنى أنهم لا يلدون إلا من سيصير فاجراً كفّاراً عند بلوغه، وعليه ففي

---

(١) ينظر: تفسير البيضاوي: ١/ ٣٩٦.
(٢) ينظر: تفسير الألوسي: ٢٩/ ٧٩.
(٣) تفسير الألوسي: ٢٩/ ٨٠.
(٤) ينظر : لسان العرب :٥/ ٤٦ مادة (فجر)
(٥) ينظر : المصدر السابق : ٥/ ١١٤ مادة (كفر)

﴿فَاجِرًا﴾ و﴿كَفَّارًا﴾ مجازان مرسلان من تسمية الشيء بما سيؤول إليه والقرينة حالية؛ لأنّ المولود منهم لا يكون ﴿فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ عند ولادته، وإنّما يفجر ويكفر عند بلوغه، وعلاقة المجاز المرسل اعتبار ما سيكون، وهو وصف يشير إلى أنهم سيربّون أبناءهم على شاكلتهم وأنَّ الأبناء سيتبعون ضلال آبائهم، فلا محل للأسى عليهم والرأفة بهم. وبذلك أصبح هذا الإخبار علَّة للدعاء بإهلاكهم، واستئصالهم على أنَّ هذا الإخبار وإن كان ظاهره المعنى المجازي لعلاقة الاستقبال إلا أنه إخبار عن وحي يصل إلى الأمر الحقيقي وذلك مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: ٣٦].

وبعد أن دعا عليهم استجاب الله دعاءه فأغرقهم، وقد صوَّر الله نهايتهم في هذه الآيات فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ٩-١٢].

والفاء في ﴿فَدَعَا﴾ عاطفة، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ و﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ بالفتح على تقدير باء محذوفة أي: دعا بأني مغلوب، وبالكسر «إنّي» على تقدير إرادة القول، أي: دعا فقال إنّي(١).

والمعنى: أي غلبني الكفّار فانتصر، وفي قوله: ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ إيجاز بالحذف، والتقدير: فانتصر لي منهم، وقيل: فانتصر لنفسك، والأول أولى؛ لأنَّ انتصر لي مناسب لقوله: إنّي مغلوب (٢).

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧/ ١٨٢.

(٢) ينظر: المصدر السابق نفسه، وتفسير البحر المحيط: ٨/ ١٧٥.

وفي كلمة ﴿مَغْلُوبٌ﴾ مجاز، حيث شبّه يأسه من إجابتهم بحال الذي قاتل أو صارع فغلبه مقاتله[1].

فكان جواب الله له بقوله: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ فجملة (فتحنا) معطوفة على جملة (دعا) والماء المنهمر: المنصبّ انصباباً شديداً، والفاء التي جاءت للتعقيب تصوّر لنا سرعة استجابة الله تعالى لنبيه عليه السلام ، فكان إرسال الطوفان عليهم بهذه الكيفية المحكمة والسريعة.

وفي الآية استعارة تمثيلية؛ وذلك بتشبيه هيئة تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء[2]؛وذلك أن الماء كان من السحاب، وعلى هذا فهو كما يقول القائل: في المطر الوابل الشديد جرت ميازيب السماء وفتح أفواه القرب أي كأنّه كان كذلك، وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين[3].

وجملة ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، والمعنى: جعلنا الأرض كأنّها عيون متفجرة، وفي تعدية الفعل (فجرنا) إلى الأرض مجاز؛ إذْ «جعلت الأرض من كثرة عيونها كأنها عينٌ تتفجَّر، وفي هذا إجمال جيء من أجله بالتمييز له بقوله: ﴿ عُيُونًا ﴾»[4].

ولو سيق الكلام على ظاهره فقيل : فجّرنا عيون الأرض أو العيون من الأرض «لم يفد ذلك ولم يدلّ عليه، ولكان المفهوم منه أنَّ الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الأرض، وتبجَّس من أماكن فيها»[5].

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧/ ١٨٢.

(٢) ينظر: تفسير الألوسي : ٢٧ / ٨٠ .

(٣) ينظر: تفسير الرازي: ٢٩/ ٣٣، وتفسير اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي: ١٤/ ٤٩٨.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧/ ١٨٣.

(٥) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني:ص ١٠٢ .

وإنما جاء الإخبار باستجابة الله تعالى لدعاء سيدنا نوح عليه السلام في سورة القمر ولم يذكر ذلك في سورة نوح؛ لأنّ سورة نوح تقوم على بيان معاناة نوح عليه السلام مع قومه في دعوته لهم وإصراره على هدايتهم، وإصرارهم مع ذلك على الكفر والعناد. هذا بخلاف سورة القمر فهي مبنية على بيان نهايات الأقوام المكذبة لرسلهم.

ومن تلك الدعوات التي امتازت بالشدة والقسوة التي اقتضتها طبيعة الصراع بين الإيمان والكفر، دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس:٨٨].

وتكرار ﴿ رَبَّنَآ ﴾ في الآية ثلاث مرّات ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ... رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ ... رَبَّنَا ٱطْمِسْ ﴾ إطناب الغرض منه (الإلحاح في التضرّع)[١] واستجلابه للإجابة وتأكيد للنداء السابق، وفي هذا «ضرب من الربط بين الجمل المفتتحة بالنداء ربط المِثْل بمِثْلِه»[٢].

ثم يتصاعد دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه بقوله: (رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ). و«طمس الشيء: إذهابه عن صورته، والمعنى: الدعاء عليهم أن يمحق الله أموالهم ويهلكها»[٣].

ومعنى الشدّ على القلوب: الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان، فتصبح قاسية مطبوعة لا تقبل الحق ولا تنشرح للإيمان[٤].

وفي قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ مجاز لأنّ في إسناد "الأليم" وإضافته إلى

---

(١) ينظر: مدارك التّنْزيل وحقائق التأويل، للنسفي: ٢/ ١٥٠.

(٢) التحرير والتنوير: ١٣/ ٢٤٠.

(٣) فتح القدير: ٢/ ٦٧٧.

(٤) المصدر السابق نفسه.

العذاب مجاز عقلي؛ لأنّ المراد الأليم أثره فالعلاقة هنا الفاعلية.

وقد استشكل على بعض أهل العلم ما في دعاءَيْ نوح وموسى- عليهما السلام- على أقوامهما وقالوا: إنَّ الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم وليس الدعاء عليهم بالهلاك والعذاب. وأجيب بأنّ نوحاً وموسى - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام- ما دعوا ذلك الدعاء على قومهما إلا بعد أن علما من الله أنهم أشقياء في علم الله، لا يؤمنون أبداً، أمّا نوح فقد صرَّح الله تعالى له بذلك في قوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦].

وأمّا موسى فقد فهم ذلك من قول قومه له: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢].

وبعد أن نجَّى الله موسى ومن معه وأغرق فرعون وملأه قام موسى عليه السلام يحرض بني إسرائيل على دخول الأرض المقدسة وقتال الكفَّار فيها، ويبشرهم بالنصر والظفر عليهم: ويخبرهم خبراً تطمئنّ إليه النفس بأن الله قد كتب لهم دخولها وانتصارهم على عدوهم، فامتنعوا وعصوا أمر موسى عليه السلام بحجة أنَّ فيها قوماً جبارين أشداء، وأنّهم لن يدخلوها حتى يخرجوا منها، فحاورهم موسى ومعه رجلان من الذين أنعم الله عليهما فأصروا على موقفهم وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة :٢٤].

وهذا من أشنع الكلام الذي يدلّ على ضعفهم وجبنهم، وسوء أدبهم وتخليهم عن نبيهم، ففي قولهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ «مخاطبين له باسمه جفاءً وجلافة وقلة أدب»(١)، ولم يقولوا يا نبي الله أو يا كليم الله، ثم أكّدوا امتناعهم أشدّ تأكيد يعبَّر

(١) نظم الدرر: ٢/ ٤٢٥.

عنه وذلك بعدَّة مؤكدات هي: "**إنَّ**" و"**لن**" و"**ظرف الزمان** "**أبدا**" والفعل "**ما داموا**" الذي يفيد معنى استمرار اتصاف المسند إليه بالمسند وذلك كله يدلّ على تماديهم في العصيان وأنّهم مصرون على ترك الجهاد.

وقولهم: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ تأكيد آخر بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والدوام. والهاء للتنبيه وهنا ظرف مكان للقريب، وهو تعبير يدلّ على أنّهم قد «خارت طباعهم فلم يقدروا على النهوض معه للقتال ولا على الرجوع من حيث جاءوا بل أقاموا حيث كانت المحاورة بين موسى وبينهم»[(١)].

ولما كان امتناعهم معصية وقولهم لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ استهانة واستهزاء به – سبحانه– ورسوله عليه السلام، دعا عليهم موسى فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٥]. وقد بدأ موسى عليه السلام دعاءه بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾ وهو افتتاح يشعرنا ببثِّ الحزن والشكوى إلى الله، مع رقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة[(٢)].

وليس القصد به الإخبار، وكذا كل خبر يخاطب به علاّم الغيوب لا يقصد به إفادة الحكم أو لازمه كما سبق.

وقوله: ﴿وَأَخِيۖ﴾ عطف على ﴿نَفْسِي﴾ أي: «لا يجيبني إلى طاعتك ويوافقني على تنفيذ أمرك سوى نفسي وأخي»[(٣)]. فموسى عليه السلام قصر الإجابة إلى طاعة الله وتنفيذ أوامره على نفسه وأخيه قصراً حقيقيّاً ادعائيّاً، لوجود من يوافقه على الطاعة من بين القوم وهما الرجلان اللذان أنعهم الله عليهما، ولكنّ موسى عليه السلام لضيقه

---

(١) تفسير البحر المحيط، ٣/ ٤٧١.

(٢) ينظر: الكشاف: ١/ ٦٥٥، وتفسير البحر المحيط: ٣/ ٤٧١، وتفسير أبي السعود: ٣/ ٢٥،

(٣) تفسير الألوسي: ٦/ ١٠٨.

من تبرم القوم وتقلب آرائهم وخذلانهم لم يعتدّ بهما كأنّه لم يثق بهما، ولم يعتمد عليهما لقلّة ثقته بالقوم(١).

والقصر في الدعاء جاء بالنفي مع الاستثناء ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾ وهذا الأسلوب يأتي في المعنى الذي يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد(٢).

وقيل: ليس القصد حقيقة القصر بل بيان قلة من يوافقه بدليل أنّه لم يذكر الرجلين اللذين أنعم الله عليهما، وقد كانا يوافقانه(٣).

وعليه، فيكون في الأسلوب تشبيه، حيث شبّه حاله في قلة من يوافقه بحال من لا يملك إلا نفسه وأخاه(٤).

وقوله: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ دعاء عليهم، والفرق: هو الفلق والفصل بين الشيئين(٥)، والمعنى: افصل بيننا وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحقّ وعليهم بما يستحقون؛ ولذلك «وصل به قوله " فإنها محرمة عليهم " على وجه التشبيه»(٦).

والتصريح بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ إظهار في موضع الإضمار، وكان يصح أن يقال: فافرق بيني وبينهم؛ وذلك لورود ما يشير إليهم قبل ذلك، ولكنه عدل إلى الإظهار لينبه إلى العلّة الموجبة للتفريق وهي اتصافهم بصفة الفسوق، فالمطيع لا يريد صحبة الفاسق ولا يؤثرها، ومن هنا كان التيه في الأرض عقاباً خُصَّ به الفاسقون العاصون.

---

(١) الكشاف: ١/ ٦٥٦، وتفسير الألوسي: ٦/ ١٠٨.

(٢) دلالات التراكيب ـ محمد محمد أبو موسى، ص ١٠٩ .

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ﴾[المائدة :٢٣]، الآيات.

(٤) تفسير الألوسي: ٦ / ١٠٨ .

(٥) ينظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا : ٦/ ٢٧.

(٦) تفسير البحر المحيط: ٣/ ٤٧٢.

والفاء في ﴿فَٱفۡرُقۡ﴾ استئنافية تشعر برغبة موسى عليه السلام في سرعة مفارقة هؤلاء المتمادين في عنادهم ومعصيتهم.

ولما كان فعلهم وقولهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق قال الله تعالى مجيباً دعوة نبيه إجابة متصلة بدعائه ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[المائدة:٢٦].

وهكذا في إجابة الله تعالى لأنبيائه يؤتى بالفاء مسارعة في استجابة دعواتهم، وتطييب خواطرهم؛ مما يدلّ على مكانتهم ومَنْزِلتهم عند الله تعالى.

ومن الأنبياء من واجه كفر قومه وعنادهم بتفويض الأمر إلى الله، ومن هذا القبيل دعاء شعيب عليه السلام فبعد أن عانده قومه وكذبوه، وتوعدوه بالطرد والرجم، توجه إلى الله داعياً: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾[الأعراف:٨٩]، فتقديم الجار والمجرور"على الله " على الجملة الفعلية لإفادة التخصيص وهو قصر إضافي حيث قصروا توكلهم على الله وحده دون غيره، وفي إظهار الاسم الجليل (الله) مبالغة في حسن التوسل، وكمال التضرع لله تعالى.

وفي هذا الأسلوب إعراض عن مجادلتهم بعد أن ردَّ عليه قومه بالتكذيب وتوعدوه بالرجم والنفي من البلاد، وفيه إقبال على الله تعالى بالدعاء ليفصل ما بينه وبين قومه. وكلمة ﴿ٱفۡتَحۡ﴾ بمعنى: أَظْهِرْ وبيِّنْ، ومنه فتح المشكل لبيانه وحلِّه تشبيهاً له بفتح الباب وإزالة الإغلاق حتى يوصل إلى ما خلفها[(١)]. والمعنى: أَظْهِرْ أمرَنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم، ويتميز الحق من الباطل، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

---

(١) حاشية الشهاب ٤/ ١٩٢.

المبحث الثاني : ما يتعلق بأنفسهم وأهليهم

المطلب الأول : ما يتعلق بالنفس

تنوعت مقاصد الأنبياء ومطالبهم فيما يتعلق بالدعاء لأنفسهم، وقد اشتمل دعاؤهم على مطالب عالية من خيري الدنيا والآخرة من أبرزها: طلب المغفرة والرحمة والتوبة، وطلب الخير والنفع المطلق، وطلب كشف الكرب والغمّ، وطلب السلامة من الفتن والبلاء، وطلب ما يعين على تبليغ دعوتهم والقيام برسالتهم. وسأتناول هذه المقاصد والمطالب فيما يأتي:

١- طلب المغفرة والرَّحمة :

أول تلك الدعوات دعاء آدم وحواء -عليهما السلام- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

وكان هذا الدعاء منهما -عليهما السلام- بعد أن أكلا من الشجرة المنهي عنها، وقد استهلاَّ الدعاء هنا بلفظ "ربّنا" المشعر بالاسترحام والاستعطاف والتضرع وكمال الخضوع لله تبارك وتعالى.

وحذف حرف النّداء "الياء" للمبالغة في تعظيم المنادى وتنزيهه؛ وذلك لأنّ فيه طرفاً من معنى الأمر، وحذف حرف النداء ليزول معنى الأمر ويخلص للتعظيم والتنزيه كما مرَّ سابقاً.

والتعبير بالجملة الفعلية "**ظلمنا**" دون التعبير بالجملة الاسمية يدل على الحدوث والطروء للدلالة على أنّها زلة طارئة وليست معصية إصرار، ولا يكون هذا المعنى لو عبَّر بالجملة الاسميَّة وقال: إنّا ظالمون؛ لأن التعبير بالجملة الاسمية يدلّ على الثبات على الظلم والإصرار عليه، وهذا غير مراد ولا وارد.

وإسناد الظلم إلى نفسيهما في قولهما ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ اعتراف بالخطأ والذنب، وهي عادة الأولياء والصالحين في استعظام الصغائر منهم، ولم يجادلا عليهما السلام- كما فعل إبليس في مجادلة ربه، وفي ذلك إشارة إلى أنّ المبادرة إلى الإقرار بالذنب والندم لا مثيل له في اقتضاء العفو وإنزال الرحمة «وهذا السّر ما سرى في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير في دنياه وأخراه» (١).

وجملة ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾ جواب عن قول الله لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢]، وفصلت عنها كما يفصل السؤال عن الجواب وهذا القول «مما حصل عند ذوق الشجرة، وقد رتب الإخبار عن الأمور الحاصلة عند ذوق الشجرة على حسب ترتيب حصولها في الوجود، فإنها بدت لهما سوآتهما فطفقا يخصفان وأعقب ذلك نداء الله إيّاهما» (٢)، ثم قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ﴾ مما يدلّ على سرعة توبتهما عليهما السلام. وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ شرط حذف جوابه لدلالة جواب القسم المقدر عليه، ولمّا كان الشرط مرتبطاً بجوابه ومفتقراً إليه أفاد تشويقاً في الأسلوب وأثراً في النفس. ويلاحظ هنا أنهما لم يطلبا الرحمة والمغفرة مباشرة فيقولا مثلاً: ربنا اغفر لنا وارحمنا، وهذا فيه دلالة على إحساسهم بالذنب فلم تستسغ نفوسهما أن يطلبا ذلك مباشرة من الله تعالى، وإنما ساقا ذلك على سبيل الشرط ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾، وهذا من كمال أدبهما مع الله تعالى .

وطلب المغفرة والرحمة نوح عليه السلام في قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧]. وهذا الدعاء صدر من نوح عليه السلام بعد أن سأل ربه أن ينجي ابنه من الغرق بعد أن وعده الله أن ينجي معه أهله فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ

---

(١) البداية والنهاية : ١/ ١٨٤ .

(٢) التحرير والتنوير: ٨/ ٦٥.

وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ [هود:٤٥]. فقال الله له: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [هود:٤٦].

وتأمّل الفرق بين قول آدم وحواء عليهما السلام: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾، وقول نوح عليه السلام: ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.

حيث جاء دعاء أبوينا -عليهما السلام- بمؤكدين هما اللاَّم ونون التوكيد الثقيلة في حين جاء دعاء نوح عليه السلام خالياً من التوكيد وذلك حسبما يقتضيه المقام.

ففعل نوح عليه السلام ليس بمعصية كمعصية آدم عليه السلام؛ لأنه فهم أنّ ابنه داخل مع أهله الذين وعد الله بنجاتهم فبيَّن الله – تعالى- له أنه ليس من أهله؛ لأنه كافر، فطلب من ربه الرحمة والمغفرة حين عاتبه على سؤاله وساق كلامه بدون توكيد.

ولما كان فعل آدم عليه السلام معصية لربه أكَّد طلبه بمؤكدين اثنين ليتناسب ذلك وقدر الذنب والخطأ الذي حصل منه، ومن هنا جاء التوكيد بحسب ما يقتضيه المقام، فقد يكون الكلام لا يحتاج إلى توكيد، وقد يحتاج إلى مؤكِّد واحد أو أكثر بحسب الحاجة إلى ذلك.

ونلحظ في الدعاءين السابقين تقديم المغفرة على الرحمة، وذلك؛ لأن المغفرة رحمة خاصَّة بالمؤمنين في حين أن الرحمة لعموم الخلق، ويدخل في رحمة الله المؤمن والكافر، فكلهم يعيشون في رحمة الله، حتى البهائم تعيش برحمة الله وتتراحم فيما بينها. إضافة إلى أنَّ «المغفرة سلام والرحمة غنيمة والسلام مطلوب قبل الغنيمة»[1].

وطَلَبَ المغفرةَ والرحمة موسى عليه السلام وذلك عندما اختار من قومه سبعين رجلاً ووعدهم الله ميقاتاً يحضرون فيه، فلما حضروا قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾

(١) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٢٩١.

[النساء:١٥٣] .

فتجرؤ على الله جرأة كبيرة وأساؤوا الأدب مع الله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [النساء:١٥٣] فصعقوا جميعاً.

فدعا موسى عليه السلام ربَّه متضرِّعاً فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٥-١٥٦].

وقد بدأ موسى عليه السلام دعاءه بلفظ ﴿رَبِّ﴾ دون أن يذكر حرف النداء (يا) استشعاراً بقرب المنادى إلى نفسه وإيثار كلمة ﴿رَبِّ﴾ للدلالة على معنى التربية والرعاية، والإضافة إلى ضمير المتكلم يوحي بتذلل موسى عليه السلام لخالقه، وحرصه على إجابة دعائه.

وتأمَّل القصر المستفاد من تقديم المسند إليه ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: أنت وحدك لا غير.

وفي إضافة الولاية إلى الضمير ﴿وَلِيُّنَا﴾ ما ينبئ عن عظيم التضرع والتبتل وحسن التوسل إلى الله تعالى.

وتقديم المغفرة على الرحمة في قوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ أولى كما سبق بيان ذلك[(١)].

وفي الجملة إيجاز حذف والتقدير: اغفر لنا ذنبنا - وكذا فيما سبق- وحذف المفعول به هنا لإفادة العموم وشموله لغير محدد فلم يذكر مفعولاً به معيَّناً حتى لا ينحصر الحكم به، فالمطلوب مغفرة شاملة، ولو ذكر في السياق مع تقدم ما يشير

(١) ينظر : ص٢٢٦ من البحث.

إليه وهو الظلم لأفاد طلب مغفرة ذلك الذنب على سبيل الخصوص، ولم يفد معنى: اغفر لي كل ذنوبي، وكل ظلم لنفسي، وفي الحذف إشارة إلى استعجال طلب المغفرة والرحمة من الله تعالى.

وقد جاء طلب المغفرة والرحمة هنا طلباً صريحاً ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ بخلاف دعاء آدم ونوح - عليهما السلام- ، ولعل السبب في ذلك ما تقدم دعاء آدم ونوح - عليهما السلام- من تقصير في بعض الأمور، فآدم خالف أمر الله وأكل من الشجرة، ونوح دعا لابنه بالنجاة وهو ممن لم يؤمن به، وهذا بخلاف دعاء موسى عليه السلام فلم يُسبق بما يدلّ على المخالفة أو التقصير منه على وجه الخصوص، بل تقدم ما يدلّ على أنه ممن يدخل في رحمة الله كما في قوله-تعالى-: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٤] وهو داخل فيمن يخاف الله فهو يستحقّ المغفرة والرحمة ولذا طلبهما طلباً صريحاً.

ونظراً لأهمية الدعاء بطلب المغفرة والرحمة أرشد الله تبارك وتعالى نبيَّه محمدا ﷺ أن يدعوه بهذا الدعاء على وجه الخصوص بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[المؤمنون:١١٨]، وفي هذا الدعاء نلمس إيجازاً بالحذف من خلال حذف المفعول به للفعلين ﴿ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾ ، وذلك كما سبق لإفادة العموم فيشمل كلّ ذنب وتقصير دون تحديد أمرٍ بعينه، كما نلمس إيجازاً بحذف متعلق الفعلين، وفي ذلك نوع من التلطف وحسن الأدب من خلال تفويض الأمر إلى الرب في تعيين المغفور لهم والمشمولين بالرحمة، ولا يكون هذا المعنى لو قيل: «اغفر لنا وارحمنا». ثم ختم الدعاء بـ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، وهو تذييل مناسب للاستغفار والاسترحام.

٢- طلب الخير والنفع المطلق:

ومن تلك الدعوات دعاء إبراهيم عليه السلام في سياق التبرُّؤ من قومه ومعبوداتهم الباطلة وذلك في قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾
وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ
لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء:٧٧-٨٩].

وهذه الآيات جاءت بعد أن دعا إبراهيم عليه السلام أباه وقومه إلى عبادة الله عز وجل ونبذ عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ.. فبعد أن وجههم إلى النظر والتأمل في عجز آلهتهم عن النفع والضرّ وإجابة الدعاء، أظهر التبرؤ من آلهتهم بقوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وقد عبَّر بـ﴿ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ دون (ربي) لإثبات ربوبية الله تعالى للعالمين في مواجهة أربابهم الذين لا حول لهم ولا قوة ، ثم تخلَّص بعد ذلك إلى الثناء على الله معدداً بعض ما أفاض عليه من النعم التي تستوجب تخصيص العبادة له فقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾. وفي نظم هذا الثناء بين يدي الدعاء وجوه بلاغية كثيرة فهو أولاً: جاء بالضمير ﴿هُوَ﴾ مع أمر الهداية والإطعام والإسقاء والإشفاء؛ لتأكيد نسبتها إلى الله وتخصيصه بها؛ لأنَّ هذه الأفعال مما يمكن أن يدعيها الخلق؛ ولما كان الأمر كذلك ناسب توكيدها بالضمير. بينما لم يأت بالضمير ﴿هُوَ﴾ مع الإماتة والإحياء في قوله: ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ لأن الإماتة والإحياء من الأمور التي لا يدعيها أحدٌ غالباً، وإنّما أمرهما بيد الله وحده، فلم يكن ثَمَّ ضرورة إلى التوكيد بالضمير[1].

---

(١) ينظر: إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين درويش: ٧/ ٩٢ .

وتكرار الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في المواضع الثلاثة مع إمكان الاكتفاء بالعطف على صلة الموصول الأول «إطناب الغرض منه الإيذان بأنّ كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى مستقلّ»[(١)].

وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي في قوله: ﴿خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ قصرٌ إضافي وهو قصر صفة على موصوف أي: هو يهديني وحده، دون غيره وهذا القصر يفيد التخصيص فهو سبحانه المختص بأمر الهداية، والفاء تدل على مجيئ الهداية عقب الخلق مباشرة.

وعبَّر عن الخلق بلفظ الماضي ﴿خَلَقَنِى﴾ ؛لأنَّ خلق الذات لا يتجدد في الدنيا، بينما عبَّر عن الهداية بلفظ المستقبل ﴿يَهۡدِينِ﴾ لأن الهداية مما يتجدد ويتكرر كلَّ حين[(٢)]. وإطلاق الهداية عن القيد لإفادة العموم والشمول لكل ضروب الهدايات، وكذا إطلاق (يطعمني - ويسقين - ويشفين) لتشمل كلّ أنواع الطعام والشراب والشفاء، وجملة: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ عطف على جملة ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ﴾، ونظمت معها في سلك الصلة لموصول واحد، ولم تتفرد بموصول على حدة ؛ لأنّ «الصحة والمرض من متفرعات الأكل والشرب غالباً»[(٣)].

وانظر إلى حسن أدب الخليل عليه السلام حين أسند المرض إلى نفسه فقال: ﴿مَرِضۡتُ﴾ وأسند الشفاء إلى الله تعالى فقال: ﴿يَشۡفِينِ﴾ مع أن المرض والشفاء كلّه من الله تعالى وذلك رعاية لحسن الأدب مع الله تعالى. كما أنَّ في إسناد المرض

---

(١) البحر المديد لابن عجيبة: ٥/ ٢٥٩ . و ينظر : تفسير أبي السعود: ٦/ ٢٤٩.

(٢) ينظر: تفسير الرازي ٢٤/ ١٢٥، واللباب في علوم الكتاب: ١٥/ ٤٣.

(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٤٩. وينظر: تفسير الألوسي: ١٩/ ٩٦ .

إلى نفسه إشارة إلى أن كثيراً من الأمراض تحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه(١).

وبعد أن أثنى الخليل عليه السلام على ربّه عز وجل بما هو أهله، وأسند النعم إليه، حمله ذلك على مناجاته ودعائه تنبيهاً إلى أن تقديم الثناء بين يدي الدعاء من مسوغات الإجابة، فقال عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾، والبداية هنا بلفظ ﴿ رَبِّ ﴾ المشعر بمعاني التربية والرعاية والولاية، والتعبير بالفعل ﴿ هَبْ ﴾ ليشير إلى أنَّ استجابة الله تعالى له محض فضل منه سبحانه وتعالى ومنحةً يمنحها إياه وليست أمراً مستحقّاً يناله الإنسان بمجرد سعيه وكده.

ولبيان حرصه على إجابة الدعاء جاء بتقديم الجار والمجرور ﴿ لِي ﴾ على المفعول الصريح ﴿ حُكْمًا ﴾ إضافة إلى ما في هذا التقديم من سرّ التشويق إلى المؤخّر، فإنّ ما حقّه التقديم إذا أُخّر تبقى النفس مترقبة لوروده ولاسيما إذا كان من المنافع التي يحرص المؤمن عليها. ثم طلب من ربه أن يكون موفّقاً للانضمام إلى زمرة الصالحين فقال: ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ وأصل الإلحاق وحقيقته جعل الشيء لاحقاً أي مدركاً من سبقه في السير وأطلق هنا مجازاً على اللحاق بالسابقين من الأنبياء والصالحين.

ثم قال: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي: اجعل لي ذكراً حسناً، وثناء جميلاً في الأمم الآتية، والمراد باللسان: ما يوجد به من الكلام والثناء، ولسان القوم لغتهم(٢). وعليه ففي "اللسان" مجاز حيث عبّر عن الذكر الحسن والثناء الجميل

---

(١) ينظر: تفسير الرازي: ٢٤/ ١٢٥، وتفسير البحر المحيط: ٧/ ٢٣.

(٢) ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: ٤].

باللسان، وذلك لأنّ الذكر والثناء يكون باللسان فهو مجاز مرسل علاقته الآلية من إطلاق الآلة وإرادة ما ينشأ عنها.

وإضافة ﴿لِسَانَ﴾ إلى ﴿صِدْقٍ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته أي: لساناً صدقاً، وهذا الوصف بالمصدر للدلالة على المطابقة التامة بين الثناء والصدق فيه، ومن نظائره في القرآن الكريم: قدم صدق، ومقعد صدق، ومدخل صدق، ومخرج صدق، كما سيأتي في دعاء نبينا محمد عليه الصلاة والسلام(١)، وفي الوصف بالمصدر مبالغة بجعله ذات الصدق مما يشعر برغبة الخليل عليه السلام في بقاء أثره الطيب، وقد استجاب الله دعاء الخليل فجعله محبوباً مقبولاً معظماً مثنىً عليه في جميع الملل، ولا أدلّ على ذلك من أنّ المسلمين يذكرونه في صلواتهم ويستغفرون له وذلك في التشهد الأخير من كل صلاة.

ثم يترقى الخليل في دعائه فيسأل الله بقوله: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾. أي: اجعلني من المستحقين لجنّة النّعيم، والإرث مستعار لأهل الاستحقاق؛ لأن (الوارث) من يصير إليه ما كان لغيره من مال أو ملك أو غيرهما بمجرد موت المالك السابق(٢). وربما نلحظ في التعبير بلفظ (الإرث) أنّ الجنَّة معدَّة إعداداً صالحاً لنعيم كلّ الإنس والجنّ إن آمنوا وأسلموا، لكن من كفر منهم وكان من أهل النار فإن أهل الجنة يرثون ما كان مهيّأً لهم، فيملكونه ميراثاً بلا عوض(٣).

---

(١) ينظر: ص ٢٤٥ ، من البحث.

(٢) ينظر: لسان العرب ، ٢/ ١٩٩ ، مادة (ورث)

(٣) كما في الحديث الصحيح « ما منكم أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإن مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله وذلك قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ ». ينظر: صحيح سنن ابن ماجة لمحمد ناصر الدين الألباني، ٢/ ١٤٥٣ ، رقم ٤٣٤١ .

ثم دعا بقوله: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

وقد طلب الخليل عليه السلام في هذا الدعاء من ربه ألا يعرّضه لما يحزنه ويخزيه يوم البعث، وجملة ﴿ وَلَا تُخْزِنِي ﴾ دعاء بأسلوب النهي، وجملة ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ جيء بها تأكيداً لذلك اليوم وتعظيماً لشأنه، والاستثناء هنا منقطع وهو ما كان فيه المستثنى ليس بعضاً من المستثنى منه[1]، والمعنى: لكنّ من أتى الله بقلب سليم تنفعه سلامة قلبه[2].

ولا يكون الاستثناء منقطعاً -على رأي الزمخشري- إلا مع «تقدير المضاف وهو الحال المراد بها السلامة، وليست من جنس المال والبنين حتى يؤول المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان، وإنما ينفع سلامة القلب ولو لم يقدر المضاف لم يحصل للاستثناء معنى»[3].

وقدم ذكر المال على البنين للاهتمام والعناية؛ وذلك أن المال أهمّ وأعنى في قضية الفداء ولذلك جعل أوّلاً.

ولما تمت النعمة على يوسف عليه السلام باجتماع أبويه وإخوته وما منّ الله به عليه من النبوة والملك سأل ربّه فقال: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١].

وحذف حرف النداء في دعائه ﴿ رَبِّ ﴾ يشعر بقرب صلته بربه - سبحانه

(١) ينظر: الأصول في النحو لابن السراج: ١/ ٢٩٠.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٧/ ٢٤.

(٣) الكشاف: ٣/ ٣٢٦.

وتعالى- وإيثاره وصف الربوبية؛ لما توحيه كلمة ﴿ رَبِّ ﴾ من التضرع والابتهال؛ ولأنّ إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية كما سبق بيان ذلك.

وإضافة الضمير إلى ﴿ رَبِّ ﴾ يوحي بتذلل العبد لخالقه وحرصه على إجابة الدعاء، و﴿مِن ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ للتبعيض، والمعنى بعضاً من الملك وهو ما آتاه الله من تدبير خزائن ملك مصر، وكذلك ﴿مِن ﴾ في قوله ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ فهي للتبعيض، والمعنى بعضاً من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤى[1].

وفي جعل الذي أوتيه بعضاً من الملك، وبعضا من التأويل إشعار بأن ذلك في جنب ملك الله وفي جنب علمه شيء قليل جدّاً[2].

وهاتان الجملتان وإن كانتا تفيدان الاعتراف بالنّعمة والثناء على موجدها فهما متضمنان معنى الدعاء والطلب أن يعينه الله على شكرهما وتسخيرهما في طاعته.

وقوله: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: مبدعهما وخالقهما على غير مثال سابق، ونصب على أنه نعت لرب أو بدل منه[3].

وقد خصّ يوسف عليه السلام السموات والأرض بالذكر لعظم خلقهما الذي يدلّ على عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - ؛ ولأنهما بالنسبة للإنسان بمثابة الغطاء والفراش لجميع المخلوقات، وسرّ تقديم السموات على الأرض لأنّ الآيات في السموات أعظم منها في الأرض لسعتها وعظمها وما فيها من الأفلاك الدائرة واستغنائها عن عمد تُقلُّها إضافة إلى استوائها واتساقها وسلامتها من الخلل

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ـ عبد الرحمن السعدي: ص ٤٠٦ .

(٢) التحرير والتنوير: ١٢/ ٥٩.

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس ، ٢/ ٣٤٥.

والفطور، وهذا السرّ - والله أعلم- يفسر لنا مجيء لفظ السموات بصيغة الجمع للدلالة على عظم الآيات فيها.

وتأمّل القصر المستفاد من قوله: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي أنت وحدك لا غير، وهذه الجملة وإن جاءت بصيغة الخبر فإنّ المراد بها الإنشاء أي: رب كن أنت وليي في الدنيا والآخرة، وقدم يوسف عليه السلام ولاية الدنيا على الآخرة؛ لأن الدنيا هي المكان الأول الذي تحققت فيه ولاية الله له؛ ولأنّ من كان الله وليه في الدنيا فهو وليه في الآخرة؛ إذ الدنيا هي دار العمل فيقع فيها التقصير والعصيان والزلل، فمن عصمه الله في الدنيا من التقصير وتولاه بالرعاية والهداية، فهو وليه في الآخرة بلا ريب.

ثم دعا ربّه ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهي دعوة أن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه، وأن يلحقه بالصالحين، وأصل اللحاق وحقيقته كما سبق جعل الشيء لاحقاً من سبقه في السير وأطلق هنا مجازاً على اللحاق بأثر السابقين من الأنبياء والصالحين.

وهذه الدعوة العظيمة جمعت «الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجلّ غايات العبد، وأنّ ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء»[(١)].

٣- طلب كشف الكرب والسلامة من الفتن:

ومن ذلك: دعاء أيوب عليه السلام فقد ابتلاه الله ابتلاء عظيماً في بدنه وأهله وماله،

(١) الفوائد لابن القيم، ص ٢٠١ .

فلم يزده ذلك إلا صبراً واحتساباً، وابتهالاً إلى الله - تبارك وتعالى - وتضرعاً إليه أن يكشف ما به من الضر والبلاء، قال تعالى مخاطباً نبينا محمداً ﷺ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾[ص:٤١].

وقد راعى عليه السلام الأدب مع ربه فلم ينسب المرض إلى الله في دعائه مع أنه فاعله، ولم يصرح بدعائه بل عرَّض بطلبه حياءً من الله عز وجل.

وجملة ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدل اشتمال من ﴿عَبۡدَنَآ﴾، و﴿أَيُّوبَ﴾عطف بيان له، والإضافة في ﴿عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ للتشريف والتكريم.

و﴿إِذۡ﴾: ظرف زمان مقيد لتذكر زمن ندائه ربّه، وخُصّ هذا الحال بالذكر من بين أحواله؛ لأن هذا الوقت هو أحسن أحوال توكله، وغاية كمال الإيمان والرضا في نفسه، وهو وقت استجابة الله دعاءه بكشف الضرّ عنه، وافتتاح آية الدعاء بـ﴿إِذۡ﴾ ليتوجه الأمر بالذكر في قوله: ﴿ٱذۡكُرۡ﴾ إلى الوقت أي : اذكر وقت نداء أيوب لربه اهتماماً بحاله وقت الدعاء، وفي هذا إشارة للعناية بزمن الخطاب، إضافة إلى ما يبعثه التعبير بـ ﴿إِذۡ﴾الظرفية من تهيئة النفس لتلقي ما يعقبها من توجيه فيتمكن فيها فضل تمكن.

وأصل النداء وحقيقته: ارتفاع الصوت، وهو مشتق من النّدى، ويراد منه في الأصل طلب إقبال المنادى، وتفرع عنه طلب الإصغاء وإقبال الذِّهن من القريب منك، وهو إقبال مجازي[(١)].

وإيثار أيوب عليه السلام للفعل ﴿مَسَّنِيَ﴾دون أصابني على سبيل المثال، تأدباً مع ربه تبارك وتعالى، إذ جعل ما حلَّ به من الضر كالمسّ الخفيف.

---

(١) التحرير والتنوير: ٨/ ٦٥.

وتأمّل كيف قدم ﴿بِنُصۡبٖ﴾ على ﴿عَذَابٍ﴾ حيث بدأ بالأهون ثم أتبعه بالأشدّ، وهذا التقديم من باب الترقي حيث روعي فيه التدرج في الشدة بدءاً بالأضعف ثم الأشدّ منه.

وتأمل جمال الروعة في دعائه عليه السلام حين لجأ إلى ربه طالباً الرحمة: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣].

و﴿أَنِّي﴾ بفتح الهمزة على تقدير باء الجرّ، أي: نادى ربَّه بأنِّي مسني الضر، وقرئ: ﴿إنّي﴾ على إضمار القول أو لتضمين النداء معناه[1].

وإسناد المسّ إلى الضرّ مجاز عقلي؛ لأن الفاعل الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى وليس الضر، ولكن أسنده إليه تأدُّباً مع الله.

وتأمّل حسن أدبه مع الله حيث جعل ما أصابه مسّاً خفيفاً، ولم يصرح بالدعاء، وهذا من كمال أدبه عليه السلام وإنما عّرض بطلبه، وتلطف بذكر مصابه، ووصف حاله بما يوجب الرحمة، وأثنى على ربه بكمال الرحمة فقال: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. ولما كان ثناء أيوب عليه السلام تعريضاً بالدعاء فرّع عليه قوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ [الأنبياء:٨٤] والفاء والسين والتاء في ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾ للمبالغة في الإجابة، وفيها إشارة إلى سرعة كشف الضر الذي نزل به.

وقد جمع أيوب عليه السلام في هذا الدعاء «بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين والتوسل بصفاته سبحانه وشدّة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه»[2].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٧/ ١٢٦، وفتح القدير: ٤/ ٢٤٢.

(٢) تفسير القرآن الكريم، لابن القيم، ١/ ٣٨١.

ولمّا استقرَّ يونس عليه السلام في بطن الحوت نادى ربَّه مستغيثاً معترفاً بخطئه كما أخبر عنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

و ﴿ذا النّون﴾ وصف أي صاحب الحوت لُقِّب به يونس عليه السلام لابتلاع الحوت له.

و﴿مُغَٰضِبٗا﴾ حال من ﴿ذَّهَبَ﴾، والمراد به هنا التشبيه، أي: خرج كالمغاضب[1]، والمفاعلة هنا تحتمل أن تكون على بابها من المشاركة، أي: غاضب قومه وغاضبوه حين لم يؤمنوا به أول الأمر. وقيل: المفاعلة هنا للمبالغة في الغضب[2].

و ﴿ نَّقۡدِرَ ﴾ من القدر وهو: التضييق. والمعنى ظنّ أن الله لا يضيق عليه، وقيل: ﴿نَّقۡدِرَ﴾ بمعنى نحكم، مأخوذ من القدرة فيكون على هذا «من باب التمثيل بمعنى: فكانت حالته مماثلة بحال من ظنّ أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمر الله»[3].

والفاء في ﴿فَنَادَىٰ﴾ فصيحة، وأل في ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لاستغراق الجنس فشملت ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل[4].

و﴿ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ مصدر - ملازم النصب - من التسبيح، وقيل: اسم مصدر

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٧/ ١٣١.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٧/ ١٣١.

(٣) الكشاف ٣/ ١٣٢، وينظر: تفسير أبي السعود: ٦/ ٨٢.

(٤) ينظر: تفسير الطبري ١٨/ ٥١٧.

سبَّح المضاعف[١]، وتصدير الكلام به من قبيل براعة الاستهلال والتلطف، وفائدة التسبيح هنا الاعتذار عما حصل من خطئه، وسوء تقديره، والمعنى: أنزهك تنزيهاً عظيماً. قال أبو السعود: «وفيه التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من (السبح) ومن جهة النقل إلى (التفعيل)، ومن جهة العدول إلى المصدر ما لا يخفى، والمراد: أنزهك تَنْزِيهاً حقيقيّاً»[٢].

وهذا الدعاء العظيم تضمن ثلاثة أمور:

١- قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ وفي هذا إثبات انفراده سبحانه بالألوهية التي تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته.

٢- قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ وفيه إثبات تنزيه الله من كلّ نقص وعيب، وإثبات عظمته الموجبة له براءته من النقائص والعيوب.

٣- قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفيه اعتراف بذنبه، وبحقيقة حاله، وهو يتضمن طلب كشف الكرب من خلال وصف حاله.

قال ابن القيم رحمه الله: «وأما دعوةُ ذى النون.. فإنَّ فيها من كمال التوحيد والتنزيه للربِّ تعالى، واعترافِ العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدويةِ الكَرْبِ والهَمِّ والغَمِّ، وأبلغِ الوسائل إلى الله سبحانه فى قضاء الحوائج، فإنَّ التوحيدَ والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلبَ كُلِّ نقصٍ وعيب وتمثيل عنه. والاعترافُ بالظلم يتضمَّن إيمانَ العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويُوجب انكسارَه ورجوعَه إلى الله، واستقالته عثرتَه، والاعترافَ بعبوديته، وافتقاره إلى ربه، فههنا أربعةُ أُمور

(١) الزاهر فى معانى كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري: ١/ ٤٩. وينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسيوطي: ٢/ ١١٦-١١٧.

(٢) تفسير أبي السعود: ٣/ ١٠١. بتصرف يسير.

قد وقع التوسلُ بها: التوحيد، والتَّنْزِيه، والعبودية، والاعتراف»[1].

ولَمَّا كان توسله إلى ربه بهذه الأمور الأربعة تعريضاً بالدعاء فرَّع عليه قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا ﴾ للمبالغة في الإجابة، وفيها إيماء إلى سرعة استجابة الله تبارك وتعالى لعبده.

وقد جاء الترغيب في هذا الدعاء في حال البلاء كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «**دعوة ذي النون إذ دعا ربَّه وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له**»[2].

ولَمَّا تعرض يوسف عليه السلام لفتنة النسوة اللّاتي أردن منه فعل الفاحشة، لجأ إلى الله تعالى وطلب منه العصمة من فتنتهنّ والسلامة من شرهنّ فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣].

وجملة ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ ﴾ استئناف بياني فكأن سائلاً يقول: فماذا صنع يوسف حينئذ؟ فقيل: قال مناجياً ربه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾، و﴿أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ أي: آثر عندي وأسهل عليّ وأهون من الوقوع في المعصية واقتراف الخطيئة، وقد بدأ دعاءه بلفظ ﴿رَبِّ ﴾ المشعر بمعاني التربية والرعاية والولاية، وإيثار وصف الربوبية في مثل هذا الموقف ينبئ عن إضافة ما فيه صلاح المربوب، وإضافة الضمير إلى

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، ٤/ ٢٠٨ .

(٢) سنن النسائي الكبرى، للنسائي، (ذكر دعوة ذي النون): ٦/ ١٦٨، رقم: ١٠٤٩٢. وشعب الإيمان للبيهقي: ٧/ ٢٥٦، رقم: ١٠٢٢٤ . والجامع الصحيح (سنن الترمذي) لأبي عيسى الترمذي: ٥/ ٥٢٩، برقم ٣٥٠٥. وصححه الألباني، ينظر: صحيح سنن الترمذي ٥/ ٥٢٩.

﴿رَبِّ﴾ يوحي بتذلله لخالقه وحرصه على إجابة دعائه. وصيغة التفضيل: ﴿أَحَبُّ﴾ ليست على بابها إذ ليس له عليه السلام محبة ولا ميل لما يدعونه إليه، وإنما الفتنة والسجن شرّان أهونهما وأقربهما إلى الإيثار السجن(١).

وأضاف الدعوة إليهنّ- مع أنّ التي دعته امرأة العزيز خاصة- خروجاً من التصريح إلى التعريض، وقيل لأنهنّ جميعاً رغّبْنَه في مطاوعتها وخوّفْنَه من مخالفتها(٢).

وقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: إن وكلتني إلى نفسي فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، وفيه حسن تأدب مع الله حيث تبرأ من حوله وقوته، وأنه لا عصمة له إلا بالله، وأنه لم يمتنع عن المعصية ولم يسلم من الوقوع فيها إلا بعون الله وتوفيقه. والخبر مستعمل في الدّعاء، ولذلك فرّع عنه جملة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ [يوسف:٣٤]

٤- طلب ما يعين على تبليغ الدعوة والقيام بأعباء الرسالة:

ومن تلك الدعوات دعاء موسى عليه السلام فحين بعثه الله إلى فرعون وقومه يدعوهم لتوحيد الله وإفراده بالعبادة، علم أنّه كلِّف أمراً عظيماً يحتاج معه إلى صبر عظيم فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه:٢٥-٣٥].

وقد استهل موسى عليه السلام دعاءه بحذف حرف النداء الدال على شعوره بالقرب من ربِّه، إضافة إلى المبالغة في تعظيم المنادَى وتنزيهه، وإيثاره لفظ الرب؛ لما فيه من

---

(١) تفسير أبي السعود: ٤/ ٢٧٤.

(٢) ينظر: فتح القدير: ٣/ ٣٤.

معنى الربوبية المشعر بالرعاية والولاية كما سبق بيان ذلك.

ومعنى ﴿ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ أي: وسِّعه ونوِّره بالإيمان والنبوة(١). وذلك ليقبل على القيام بواجب الدعوة والتبليغ ويتحمَّل ما عسى أن يرد عليه من الأعباء والشدائد.

وأصل الشرح: البسط والتوسعة، والتشريح: تقطيع اللحم(٢)، وحقيقته: تقطيع ظاهر شيء ليِّن ورقيق حتى يشفَّ عن رقَّته(٣)، وفي هذا اللفظ استعارة حيث استعير الشرح «لإزالة ما في نفس الإنسان من خواطر تكدره أو توجب تردده في الإقدام على عملٍ ما تشبيهاً بتشريح اللحم بجامع التوسعة» (٤).

ومع سعة الصدر وانشراحه لابدَّ من تيسير الله وتوفيقه، ولهذا دعا موسى عليه السلام ربَّه بذلك فقال: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ ، والمعنى: سهِّل عليَّ كلَّ أمرٍ أسلكه وكلّ طريق أقصده في سبيل تبليغ دعوتك وأداء رسالتك.

وفي تقديم الجار والمجرور ﴿لِي﴾ في ﴿ٱشۡرَحۡ لِي﴾ وفي ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ﴾ ما يدلّ على الاختصاص، وفائدة ذكرهما تأكيد طلب الشرح لصدره والتيسير لأمره، وفي تقديمها على المفعول به وتكرارهما «إظهار مزيد اعتناء بشأن كلّ من المطلوبين وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له واختصاصهما به» (٥)، وفي الآيتين إطناب يفيد التفخيم والتعظيم؛ لأنّ «قوله: ﴿ٱشۡرَحۡ لِي﴾ يفيد طلب شرح شيء ما له. وقوله: ﴿صَدۡرِي﴾ يفيد تفسيره وبيانه. وكذلك قوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾، والمقام مقتضٍ

(١) تفسير القرطبي، ١١/ ١٩٢.

(٢) لسان العرب، ٢/ ٤٩٧ ، مادة (شرح).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢١٠.

(٥) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٢.

للتأكيد للإرسال المؤذن بتلقي المكاره والشدائد»[(١)].

ولمَّا علم موسى عليه السلام أن الفصاحة والبيان مما يعين على إقامة الحجة، دعا ربَّه أن يفتح عليه بذلك فقال: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ وقد ذكر المفسرون: أنّه كان في لسان موسى عليه السلام ثقل وعسر فسأل ربَّه أن يحلّ عقدة لسانه ليفهموا قوله، وليحصل له المقصود من المخاطبة والمراجعة والإفصاح عن المعاني.

وأصل العقدة: موضع العقد من الخيط أو الحبل حين يدار بعضه على بعض ويشدّ[(٢)]، «أطلقت على عسر النطق بالكلام أو بعض الحروف على وجه الاستعارة لعدم تصرف اللسان عند النطق بالكلمة وهي استعارة تصريحية»[(٣)].

ويقال للعقدة حبسة، ومنه: عقد اللسان فهو أعقد إذا كان لا يبين الكلام، واستعار لإزالتها فعل ﴿احلل﴾ من الحلّ وهو الأمر المناسب للعقدة على سبيل الاستعارة المكنية[(٤)].

وتنكير ﴿عُقۡدَةٗ﴾ للتعظيم أي: عقدة شديدة وعدل عن التعريف بالإضافة فلم يقل (عقدة لساني) ؛ليتأتى التنكير المشعر بأنها عقدة شديدة[(٥)].

ثم علل طلبه بقوله: ﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ ، وهي جملة جاءت جواباً للطلب، وتعليلاً للغاية من دعائه أن يحلّ الله عقدة من لسانه، وقد آثر موسى عليه السلام الفعل ﴿يَفۡقَهُواْ﴾ على غيرها مثل يعلموا على سبيل المثال؛ لأنّ الفقه أخصّ من العلم، فهو يستعمل للدلالة على العلم ببواطن الأمور ودقائقها وخفاياها.

---

(١) الإيضاح: ص ١٨٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ١/ ٣٤١.

(٣) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢١١، بتصرف يسير.

(٤) ينظر: المصدر السابق نفسه.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦/ ٢١٢.

ثم دعا ربه ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾. وفي تقديم الجار والمجرور ﴿لِّي﴾ ما يدل على الاختصاص، وفي تقديم ﴿وَزِيرٗا﴾ على ﴿هَٰرُونَ﴾ دلالة على الاهتمام والاعتناء بشأن الوزارة[(١)].

ثم علل موسى عليه السلام طلبه لنفسه ولأخيه بقوله: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾. وقد علّل أبو حيّان تقديم التسبيح على الذكر في قوله: ﴿نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ بأنّ التسبيح تَنْزيه عمّا لا يليق ومحلّه القلب، والذكر ثناء وتمجيد ومحلّه اللسان، فلذلك «قدّم ما محلّه القلب على ما محلّه اللسان»[(٢)].

وهذا التعليل فيه نظر؛ لأنّ كلاً من التسبيح والذكر قد يكون بالقلب وقد يكون باللسان، وإنما قدَّم التسبيح- والله أعلم- لأن تنزيه الله مقدم على غيره من الأمور، فمن نزه الله من العيب والنقص لا يذكره إلا بما يليق به من الجلال والكمال.

ومن تلك الدعوات دعاء نبينا محمد ﷺ ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾[الإسراء:٨٠]، وهذا الدعاء الجليل متضمن سؤال الله تبارك وتعالى أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق. «وحقيقة الصدق في هذه الأشياء : هو الحق الثابت المتصل بالله الموصول إلى الله، وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة، فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقّاً ثابتا لله وفي مرضاته بالظفر بالبغية وحصول المطلوب ضد مخرج الكذب ومدخله»[(٣)].

و(المُدْخَل والمُخْرَج): بضمّ الميم وفتح الحرف الثالث، أصله اسم لمكان

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود: ٦/ ١٣.

(٢) تفسير البحر المحيط، ٦/ ٢٢٥.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم: ٢/ ٢٧٠- ٢٧١ .

الإدخال والإخراج، واختير هنا الاسم المشتقّ للإشارة إلى أنّ المطلوب دخول وخروج مخصوصان بوصف الصدق والحق، وميسران من الله - تبارك وتعالى - وهو عام؛ فيشمل الدعاء بكل دخول وخروج في جميع الأقوال والأعمال.

وقد جاء الوصف هنا بالمصدر ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وفي الوصف بالمصدر مبالغة بجعله ذات الصدق، ومعلوم أنّ العرب متى أرادوا المبالغة في وصف الشيء وصفوه بالمصدر[1]. ثم عطف عليه سؤال التأييد والنصرة فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾، والسلطان: اسم مصدر يطلق على السلطة وعلى الحجة البينة وعلى الملك وهو هنا كلمة جامعة، لأن هذا اللفظ من عموم المشترك[2].

وتأمل بلاغة النظم في هذا الدعاء حيث نلحظ في تقديم الجار والمجرور ﴿لِّي﴾ ما يدلّ على الاختصاص. وقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تأكيد بكون السلطان المطلوب على أكمل وجه، وذلك بكونه مضافاً إلى الله تعالى وصادراً من عنده، وتأخير ﴿سُلْطَانًا﴾ عن جملتي ﴿لِّي مِن لَّدُنكَ﴾ لإظهار كمال الاعتناء بالسلطان ولأهميته في إقامة الدين وإظهاره مع ما في التأخير من التشويق إلى المؤخر، فإنّ ما حقَّه التقديم إذا أخر تبقى النفس مستشرفة له ومتشوقة لوروده. و﴿نَّصِيرًا﴾ مبالغة في النصرة وهو وصف مقيد للسلطان الذي سأله نبينا محمد ﷺ فهو لم يسأل سلطاناً للاستعلاء على الناس وإنما سأل سلطاناً ينصر به الحقّ ويقيم به الدين، قال قتادة: «إن نبيّ الله علم أن لا طاقةَ له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله ﷻ، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، وإن السلطان رحمة من الله

(١) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ٢/ ٢٧٤.

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٣/ ٩٥، مادة (سلط)

جعلها بين أظهر عباده، لولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدُهم ضعيفَهم» [١].

المطلب الثاني : ما يتعلق بالأهل

في هذا المطلب نجد جملة من دعوات الأنبياء -عليهم السلام- لأهليهم وذويهم؛ لأنهم أخص الناس بهم وأقربهم إليهم، ومن ذلك الدعاء للوالدين، والأبناء، وطلب الذرية الصالحة، ويشمل الدعاء لهم بالحفظ والسلامة.

ومن تلك الدعوات دعاء نوح عليه السلام، فبعد أن دعا على الكافرين بالهلاك والعذاب أتبعه بالدعاء لنفسه وذويه ثم للمؤمنين والمؤمنات فقال: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[نوح:٢٨]. وقد بدأ دعاءه بلفظ "ربّ" المشعر -كما سبق- بمعاني التربية والعناية، وخَصَّ في دعائه طلب المغفرة إظهاراً لمزيد الافتقار إليه سبحانه وتعالى. وقد بدأ بنفسه، ثم بأقرب الناس له وهما والداه، ثم عمم أهله وذويه المؤمنين فدخل أولاده وبنوهم من المؤمنين والمؤمنات. وقد عبَّر عنهم بقوله: ﴿دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾ وفي هذا التعبير كناية عمن يسكن معه في بيته مؤمناً. فالمراد بالدخول هنا دخول مخصوص وهو الدخول المتكرر الملازم، ومن هنا سمِّيت بطانة المرء دَخِيلَته ودُخْلَته[٢].

ثم عمَّم الدعاء للمؤمنين والمؤمنات.وكرر حرف الجرّ "اللام" مع المعطوفات لي-لوالدي-لمن دخل-للمؤمنين؛ للدلالة على استقلال الدّعاء بالمغفرة لكلٍّ منهم.

وفي تعميم الدعاء للمؤمنين والمؤمنات بعدما خصّ به من يتصل به نسباً وديناً

(١) تفسير الطبري: ١٧/ ٥٣٦.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢١٥.

في قولـه: ﴿لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾ إطنـاب حيـث عطـف العـام عـلى الخاص، وذلك لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاصّ لـذكره مرّتين: مـرةً منفـرداً، ومرَّةً مندرجاً تحت العام.

ويتكرر هـذا المطلـب في دعـاء إبـراهيم عليه السلام في قولـه: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾[إبراهيم:٤١].

وقد جاء بضمير الجماعة في قولـه: ﴿رَبَّنَا﴾ للإيـذان باشـتراك الكـل في الـدعاء بالمغفرة والرحمة. وقـدَّم عليه السلام مـا يخـصّ الـنفس عـلى مـا يخـصّ الغـير حيـث بـدأ في الدعاء لنفسه ثم لوالديه ثم للمؤمنين وهو تقديم للأولوية والأحقية وتكرار حرف الجرّ مع المعطوفين للدلالة على أصالة الدعاء لهم.

وفي ذكـر العـام بعـد الخـاصّ -كـما سـبق- إطنـاب الغـرض منـه الاهـتمام بشـأن الخاصّ لذكره مرتين، وإنما طلـب المغفـرة لوالديـه قبـل أن يتبـين لـه أمـر والـده مـن الكفر [1].

وقوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ أي يثبت ويتحقق، واستعمال القيام هنـا إمَّـا عـلى سـبيل المجـاز المرسـل، نحـو قـولهم: قـام النهـارُ، وقامـت السـوق، أو عـلى سـبيل الاستعارة فيكون قد شبّه الحساب برجل قائم على سبيل الاستعارة المكنيـة، وأثبـت له القيام على سبيل التخييـل، واستعير لفـظ ﴿يَقُومُ﴾ للدلالـة عـلى أن الحسـاب في غاية الاستقامة والعدل، والله أعلم.

ويجـوز أن يكـون في الكـلام حـذف والتقـدير: يقـوم أهـل الحسـاب، فيكـون في الكلام مجاز عقلي حيث أسند إلى الحساب ما ليس له، وإنما هو لأهله [2]، وهـذا مـن

(١) ينظر: أضواء البيان: ٣/ ١٣٥ .

(٢) ينظر: الكشاف: ٢/ ٥٢٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٤.

إسناد الفعل إلى سببه الغائي أي يقوم أهل الحساب لأجله(١).

وقد يتضمن دعاؤهم طلب الولد والذرية الصالحة، ومن ذلك ما أخبر الله تعالى به عن آدم وحواء -عليهما السلام- في قوله ﷻ : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف :١٨٩].

فآدم وحواء – عليهما السلام- التجآ إلى ربّهما ومالك أمرهما ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا ﴾ أي: وهبتنا ﴿ صَٰلِحًا ﴾ أي ولداً سوياً قد صلح بدنه وبرئ من الآفات، وقيل: ﴿صَٰلِحًا ﴾ أي ولداً ذكراً؛ لأن الذكورة من الصلاح والنفع(٢).

وفي التوكيد ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ من المبالغة في الدلالة على كونهم ثابتين على الشكر مثابرين عليه منتظمين في سلك المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ما ليس في أن يقال: (لنشكرنَّ)(٣).

وقد جاء طلب الذرية على لسان إبراهيم عليه السلام حين دعا ربَّه فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات :١٠٠] ، وقد جاء الطلب بلفظ ﴿هَبْ ﴾ ؛ «لأن الهبة إحسان محض ليس في مقابلها شيء يكون عوضاً للواهب»(٤). وفي الآية حذف والتقدير: هب لي ولداً من الصالحين، وحذف لدلالة لفظ الهبة عليه، ومِن ثَمَّ جاءته البشارة بإسماعيل، ومن وراء إسماعيل إسحاق.

وبعد أن استجاب الله دعاءه حمد الله على ما وهبه من نعمة الولد وما أكرمه به من إجابة الدعاء فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى

(١) ينظر: المطول على التلخيص ـ سعد الدين التفتازاني ، ص ٥٨.

(٢) ينظر: الكشاف: ٢/ ١٧٦.

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود: ٤/ ١٣٥.

(٤) البحر المحيط: ٢/ ٤٦٣.

لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩-٤٠].

والحمد هو الثناء على الجميل، والمبالغة في الثناء المستفاد من عموم "أل" في الحمد المفيد للاستغراق وتعريف الطرفين لإفادة الحصر ومعناه: أنه لا يستحق الحمد الكامل إلا الله سبحانه وتعالى. وفي تعليق الحمد أولاً باسم الذات ووصفه تعالى ثانياً بما في حيز الموصول تنبيه على أنه سبحانه وتعالى مستحق للحمد، باعتبار ذاته ومستحق له باعتبار صفاته وأفعاله سبحانه وتعالى.

وتقييد النعمة بحال الكبر في قوله: ﴿وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ يدلّ على استعظامها وإظهار شكرها؛ لأنّ «مجيء الشيء بعد اليأس أحلى في النفس وأبهج»(١).

وعلل طلب الهبة بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، وفي التعبير بـ﴿رَبِّي﴾ مضافاً إلى ضميره مع سبق التعبير في أول الآية باسم الجلالة إشارة إلى كمال عناية الله به ورعايته له وإجابة دعائه. و﴿سميع﴾ صيغة مبالغة على وزن "فعيل" أضيف إلى مفعوله ﴿ٱلدُّعَآءِ﴾، وهي صيغة تدلّ على الكثرة والقوة في إثبات معناها، كما تفيد الثبوت والاستمرار، وأنه تعالى لم يزل موصوفاً بذلك على الدوام. ويتواصل دعاء الخليل عليه السلام لنفسه وذريته بقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ وفي تكرار النداء زيادة تضرع وابتهال.

و﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: مثابراً عليها، مستمرّاً في إقامتها، ويجوز أن يكون معدلاً لها مقوماً لها من أقمت العود إذا قومته وعدلته فيكون على سبيل المجاز(٢)، وفي إيثار صيغة اسم الفاعل إشعار بالدوام والاستمرار على ذلك.

وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ صفة لموصوف محذوف معطوف على ياء المتكلم،

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٢٢.

(٢) ينظر: تفسير الألوسي ٩/ ٤٠١، وتفسير روح البيان، لإسماعيل حقي: ٤/ ٢٨٥.

والتقدير: واجعل مقيمين للصلاة من ذريتي، و﴿مـن﴾ ابتدائيـة، ويجـوز أن تكـون تبعيضية بناءً على أنّه أعلمه أن بعضاً من ذريته لا يكون مقيماً للصلاة أو يكـون علـم ذلك من استقرائه سنة الله تعالى في الأمم السابقة(١).

ولَمّا رأى زكريا عليه السلام رزق الله يساق إلى "مريم" بغير حسـاب دفعـه ذلـك إلى أن يسأل ربَّه أن يرزقه ذرية طيبة ويهب له وليّاً صالحاً، وقد أخبر الله تبارك وتعـالى عـن ذلـك في قولـه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[آل عمران:٣٧-٣٨].

والتعبير بـ﴿هُنَالِكَ﴾ دون غيرها يعود إلى أنها تستعمل في الزمان والمكـان(٢)، ويمكن في هذا السياق حمله على المكان، أي: «في ذلك المكـان الـذي كـان قاعـداً فيـه عند مريم -عليها السلام- وقد شاهد تلك الكرامات دعا ربَّه عز وجل، وإن حمـل عـلى الزمان فهو - أيضاً-جائز، يعني: في ذلك الوقت دعا ربَّه»(٣).

وفي قوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ «تأكيد لكونه وليا مرضيا، يكـون مضـافاً إلى الله تعـالى وصادراً من عنده»(٤)، وذلـك ؛لأن حصـول الذريـة في العـرف والعـادة لـه أسـباب مخصوصة، فلـما طلـب الولـد مـع فقـدان تلـك الأسـباب جـاء التأكيـد بقولـه: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي بمحض إرادتك من غير توسط شيء من تلك الأسباب.

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي ٩/ ٤٠١.

(٢) من أمثلة دلالتها على المكان قوله تعالى: ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾[الأعراف :١١٩]، أي : في ذلك المكان، ومن أمثلة دلالتها على الزمان قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف :٤٤].

(٣) تفسير الرازي ٨/ ٢٩. بتصرف يسير جداً.

(٤) الكشاف ٣/ ٧، وينظر: تفسير البحر المحيط: ٦/ ١٦٥، وتفسير الألوسي: ١٣ / ٢٤٣.

وتأخير ﴿ذُرِّيَّةً﴾ عن ﴿لِي مِن لَّدُنكَ﴾ ؛لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر، فإن ما حقّه التقديم إذا أُخِّر تبقى النفس متشوفة له، مترقبة لوروده.

والمراد بكلمة ﴿ذُرِّيَّةً﴾ : النسل، وهي كلمة تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى، وتأنيث ﴿طَيِّبَةً﴾ ،لتأنيث الذرية في الظاهر، فالتأنيث والتذكير في أسماء الأجناس تارة يجيء على اللفظ وتارة على المعنى"(١).

ووصف الذرية بـ ﴿طَيِّبَةً﴾؛ لأنها هي التي يرجى منها خير الدنيا والآخرة. وختم طلبه بقوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ ،وفي ذلك تأكيد لمضمون الآية، وقد برز هذا التأكيد من خلال الضمير ﴿إِنَّكَ﴾ ، وصيغة المبالغة في ﴿سَمِيعُ﴾ التي تناسب مضمون الدعاء، وهذه الصيغة تدلّ على القوة والكمال في إثبات معناها، كما تفيد الثبوت والاستمرار، إضافة إلى ما تتضمنه من وصف آخر وهو أنّه سبحانه وتعالى يجيب دعاء أوليائه الصادقين ولا يردّ سؤالهم.

وفي سياق آخر يبتهل زكريا عليه السلام في ضراعة وخفية شاكياً إلى ربّه حاله وضعفه وشيخوخته معترفاً بأن الله قد عوَّده إجابة الدعاء، فلم يشق مع دعائه ربّه وهو في قوته وشبابه فما أحوجه الآن وهو في ضعفه وكبره أن يستجيب الله له، وقد قصَّ الله علينا ذلك الدعاء في أسلوبه البليغ المعجز فقال : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٢-٦].

---

(١) تفسير الرازي: ٨/ ٣٠. وينظر: معاني القرآن للفراء: ١/ ١٨٨ .

وقد استهل زكريا عليه السلام دعاءه بنداء الرب ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، وقد بدأ الدعاء بلفظ ﴿رَبِّ﴾ المنبئ عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب والذي يأتي غالباً في مواطن إظهار الضعف وطلب الاسترحام.

وتأمل جمال الوصف بقوله: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ فالتعبير بهذا الوصف كناية عن الضعف والشيخوخة، والأصل: يا ربي قد كبرت وضعفت قواي، فعدل عن هذا التعبير المباشر إلى هذه الكناية التي أبرزت لنا المعنى مصوراً، وأظهرت المعقول في صورة محسوسة.

واستعارة الاشتعال لانتشار بياض شعر الرأس من أبلغ الاستعارات حيث شبّه انتشار الشيب وكثرته باشتعال النّار في الحطب بجامع البياض والإنارة، وقيل الانتشار، واستعير الاشتعال للانتشار واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية(1).

وهذه الروعة التي نلمسها في هذا التعبير ليست لمجرد الاستعارة التي فيها، وإنّما لنظمه على هذه الشاكلة، حيث أسند الاشتعال إلى الرأس، ولم يسنده إلى الشيب، ولو أسنده إلى الشيب فقيل: **(واشتعل شيب الرأس)** لم يتحقق المراد الذي يوحيه نظم هذا الدعاء بهذه الصيغة الفريدة.

وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني بقوله: «إن قلتَ : فما السَّببُ في أَنْ كان "اشتعلَ" إذا استعيرَ للشَّيْب على هَذا الوجهِ كان لهُ الفضلُ؟ ولِمَ بانَ بالمزيَّة من الوَجهِ الآخرِ هذه البَيْنونةَ؟ فإنَّ السببَ أنه يفيدُ مع لَمَعان الشيبِ في الرأسِ الذي هو أصلُ المعنى الشُّمولَ، وأنه قد شاعَ فيه وأخذَه من نواحيهِ، وأنه قد استغرقه وعَمَّ جُملَتَه حتى لم يبقَ من السَّواد شَيءٌ، أو لم يبقَ منه إلاَّ ما يُعتدُّ به، وهذا لا يكونُ إذا

---

(1) ينظر: فتح القدير: ٣/ ٤٥٩. وينظر: الكشاف: ٣/ ٦، والإيضاح في علوم البلاغة: ١٨١، والبحر المديد: ٤/ ٣٠٠، والتحرير والتنوير: ١٦/ ٦٤.

قيلَ: اشتعلَ شيبُ الرأسِ، أو الشيبُ في الرأس، بل لا يُوجبُ اللفظُ حينئذٍ أكثرَ من ظهورِهِ فيه على الجُملة» [(١)].

وتنكير ﴿شَيْبًا﴾؛لإفادة المبالغة، وتكرار النداء في قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ للمبالغة في التضرع والابتهال والاسترحام.

وفي قوله: ﴿مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ «تأكيد لكونه ولياً مرضياً بكونه مضافاً إلى الله تعالى وصادراً من عنده» [(٢)]، وتأخير ﴿وَلِيًّا﴾ -كما سبق-؛ لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، وآثر التعبير بالولي عن الولد «لبعد ذلك عنده لكبره وكون امرأته عاقراً» [(٣)].

وجملة النِّداء ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ لتأكيد الاسترحام، وللمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه [(٤)].

وقد يأتي الدعاء بنجاة الأهل وسلامتهم من العذاب والبلاء وطلب النجاة من منكرات الذنوب وشؤمها، كما في دعاء لوط عليه السلام. فبعد أن وعظ قومه وحذرهم من فعل الفاحشة هدَّدوه بالإبعاد والإخراج فقالوا له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء :٢٦٧]، فأعرض عن مجادلتهم وقال لهم : ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء : ١٦٨- ١٦٩].

وقوله: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي من المبغضين، والقلاء: هو البغض الشديد كأنه يقلي الفؤاد قلياً [(٥)].

---

(١) دلائل الإعجاز: ص ٩٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٧.

(٣) البحر المحيط: ٦/ ١٦٥. وينظر: المحرر الوجيز : لابن عطية: ٤/ ٦.

(٤) ينظر: تفسير أبي السعود: ٥/ ٢٥٥.

(٥) ينظر: لسان العرب : ١٥/ ١٩٨، مادة (قلا).

وهذا التعبير أبلغ في الوصف من أن يقال: (**إني لعملكم قالٍ**)؛ لأنه يدلّ على أنه من الراسخين في بغضهم[1].

وهذا التعبير يشعر بأنه عليه السلام أراد إظهار الكراهية في مساكنتهم والرغبة في الخلاص من سوء جوارهم.

ولا يفوت المتأمّل جمال الجناس بين كلمتي (قَالَ – ٱلْقَالِينَ) مما أضفى على الأسلوب نغماً عذباً في جرس الآية.

وقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي نجّنا من عذاب ما يعملون، ولابد من تقدير مضاف، ولا يحسن جعل المعنى نجّني من أن أعمل عملهم لعصمة الله تعالى له، ولدلالة كرهه لهذا العمل الشنيع. وقد استجاب الله تعالى له فقال: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الشعراء:١٧٠-١٧١] .

* * *

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٩/ ١٨٠.

الفصل الثاني
الخصائص البلاغية لدعاء الأنبياء في القرآن

المبحث الأول: بناء لغة دعاء الأنبياء

أثار البلاغيون والنقاد قضية هامة تتصل باللغة هي قضية اللفظ والمعنى، وتنازعوا في أيهما أحقّ بالعناية وأجدر بالتقديم، اللفظ أم المعنى؟ ولهم في ذلك مذاهب مختلفة، منهم من فضَّل اللفظ، ومنهم من فضَّل المعنى، ومنهم من توسَّط بين ذلك[١].

وهذه المذاهب تلخص الخلاف حول اللفظ والمعنى من جهة الفصاحة وأيهما أولى بذلك من الآخر، ولا شك أنّ الفصاحة لا ترجع إلى أحدهما دون الآخر، وإنّما ترجع بالإضافة إلى ذلك إلى حسن نظم الكلام وجمال تأليفه، وقد أدرك الخطابي رحمه الله قيمة هذا النظم الذي يربط بين الألفاظ ومعانيها بقوله: «وإنّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط بينها ناظم»[٢].

ثم جاء عبد القاهر الجرجاني رحمه الله فعزز هذا الاتجاه حتى اكتملت على يديه نظرية النظم التي هي مناط الإعجاز البلاغي متوخياً في هذا النظم قواعد النحو ومعانيه. فلكل من الألفاظ والمعاني إذاً قيمتها التي تميزها، ولا تظهر هذه القيمة ولا يتجلى ما فيها من جمال وبهاء إلا إذا ارتبطت بسياق ينظمها.

والمتأمل في لغة دعاء الأنبياء يلمس الفصاحة والبيان وحسن الانسجام والتلاؤم، كما يدرك فيها إثارة عاطفية تبرز من خلال المشاهد الحية النابضة بالحياة، ومقدار ما تملكه من شحنة عاطفية على الوجدان والخيال.

---

(١) ينظر: المثل السائر: ١/ ٨٢، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ٦٨-٦٩.

(٢) بيان إعجاز القرآن ـ الخطابي ص ٢٧.

ولعل أول ما يبرز لنا من ذلك الدقة في اختيار الألفاظ، فكل لفظة جاءت مستقرّة في مكانها، مختارة لتؤدي من المعاني ما يفيض به قلب الداعي، فمن ذلك ما جاء في دعاء الخليل عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾[البقرة:١٢٩].

فإيثاره الفعل ﴿ابْعَثْ﴾ على ما سواه فيه دقة في الاختيار، فهو إضافة إلى دلالته على معنى الإرسال نجده يحمل معاني الإثارة والانبعاث والإيقاظ، وكلّ شيء بعثته فقد أثرته، والبعث من الله الإحياء[1]، وهذه المعاني تتوافق مع مهمة الأنبياء.

وتأمل لفظتي: ﴿اطْمِسْ﴾ و﴿اشْدُدْ﴾ في دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه بقوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[يونس:٨٨] فالكلمتان توحيان بالعنف والشدة في العقوبة، فالطمس: استئصال أثر الشيء[2]، والشَّدُّ: الاستحكام بقوة[3].

والإيقاع الذي يحدثه هذان اللفظان عند النطق بهما له أثر كبير في تصوير المعنى وإثرائه في النفس، فاللفظان يجسمان ويصوران شدة دعائه على فرعون وملئه بأن يمحق الله أموالهم ويهلكها ويحكم الربط على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان.

كما يلمس المتأمل في لغة دعاء الأنبياء الدقة في وضع الألفاظ في موضعها فإذا نظرت في دعواتهم ودققت في مفردات ألفاظهم تجد دقة في الوضع ظاهرة، ولا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها أو تنبو عن موضعها. والغاية من دقة الوضع هي الدقة في إيراد المعنى وتحديده، دون زيادة أو نقصان.

تأمل دعاء الخليل عليه السلام ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ حيث قدم الجار

---

(١) لسان العرب، ٢/ ١١٧، مادة (بعث).

(٢) لسان العرب ٦/ ١٢٦ مادة (طمس).

(٣) لسان العرب ٣/ ٢٣٢ مادة (شدد).

والمجرور ﴿فِيهِمْ﴾ على المفعول به ﴿رَسُولًا﴾ لإرادة التخصيص ليكون المعنى أن تكون الرسالة فيهم لا في غيرهم.

وقوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾ قيد دقيق في وصف الرسول؛ لأنّ البعث ﴿فِيهِمْ﴾ لا يستلزم أن يكون البعث ﴿مِّنْهُمْ﴾، وتقييد الرسول بأن يكون منهم حتى، «يكون أشفق على قومه ويكونون هم أعزَّ به وأشرف وأقرب للإجابة؛ لأنهم يعرفون منشأه وصدقه وأمانته»[1].

ومن الدقة في وضع المفردة في دعواتهم ما نلمسه في دعاء يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف:١٠١] حيث، نلحظ التعبير عن نعمة الملك بالفعل ﴿ءَاتَيْتَنِى﴾ بينما عبَّر عن نعمة تأويل الأحاديث والرؤى بالفعل ﴿وَعَلَّمْتَنِى﴾، ولعل السر في اختيار كلّ لفظة واستقرارها في مكانها أنّ نعمة الملك هبة، وعطاء من الله تبارك وتعالى يشترك فيه المؤمن والكافر والبرّ والفاجر، بينما تأويل الأحاديث علم إلهي يهبه الله من شاء من أوليائه، فاختار لكل سياق ما يناسبه من الألفاظ.

ومن بديع لغة الأنبياء في دعواتهم اختيار اللفظة المصورة الموحية نلمس ذلك في دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[إبراهيم: ٣٧]، فالفعل ﴿تَهْوِىٓ﴾ مضارع "هوى" بفتح الهاء والواو، وأصل الهَوِيِّ سرعة النُّزُول إلى أسفل[2]. والمراد: اجعل قلوب الناس تسرع إليهم حُبّاً وتطير نحوهم شوقاً.

وفي استعمال ﴿تَهْوِىٓ﴾ بمعنى "تسرع" استعارة تصريحية تبعية، وإيثار الفعل

---

(١) تفسير البحر المحيط ١/ ٥٦٣.

(٢) الصحاح ـ الجوهري ٦/ ٢٥٣٨ مادة (هوى).

﴿تَهْوِيَ﴾ لما يدلّ عليه من السرعة الشديدة التي لا يمنعها شيء ولا يصدها حائل؛ لأنها نزول من علو إلى سفل، ولو عبَّر بلفظ (تحنّ إليهم) "لم يكن فيه من الفائدة ما في قوله – سبحانه- ﴿تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ﴾؛ لأن الحنين قد يوصف به من هو مقيم في مكانه"(1).

كما أن لفظة ﴿تَهْوِيَ﴾ بما تدل عليه من النُّزول إلى أسفل توحي بأن الإنسان لا يملك من أمر نفسه في الحنين إلى مكة وما فيها، كما أن الذي يهوي من أعلى إلى أسفل لا يتحكم في نفسه.

وتأمَّل جمال التعبير من خلال اختيار هذه اللفظة حيث نلمس في الأسلوب «رقّة ورفرفة تصور القلوب رفّافة مجنحة، وهي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب، إنّه تعبير نديّ يندِّي الجدب برقة القلوب» (2).

وإيثار أيوب عليه السلام للفعل ﴿مَسَّنِيَ﴾ دون غيره من مثل "أصابني" أو"نزل بي" يدلّ على إيحاء ظاهر، فهو عليه السلام يأخذ نفسه بالأدب الجميل وحسن التوسل إلى ربه تعالى فما أصابه كأنّه مس خفيف إذا قيس إلى أفضال الله تعالى وألطافه به.

ويلتقي مع هذه الدقة دعاء يوسف عليه السلام ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾[يوسف :٣٣] . فإيثاره للفعل ﴿أَحَبُّ﴾ دون غيره من الألفاظ كأفضل أو أحسن لحسم مادة طمع امرأة العزيز الذي وقعت فيه من الحب والشغف(3).

ومن بديع لغة دعاء الأنبياء ما نلمس من إيثار الكلمة الخفيفة في نطقها، السهلة في مخارجها، تأمل كلمة ﴿وَهَنَ﴾ في دعاء زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم:٤] ، فبالإضافة إلى دقة اختيارها وتصويرها لضعف زكريا عليه السلام نجد أنها

---

(١) تلخيص البيان في مجاز القرآن– الشريف الرضي، ص ١١٣ .

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ٢/ ٢١١.

(٣) ينظر: الكشاف: ٢/ ٤٣٥، وتفسير أبي السعود: ٤/ ٢٧٤.

أحسن من كلمة "ضَعُفَ" في خفة النطق وسهولته؛ لأنّ الفتحة أخفّ من الضمة[١].

ولا يفوت المتأمِّل أيضاً أن يلمس الدقة في وضع كلمة ﴿مِنِّي﴾ حيث جاءت في موضعها الدقيق الذي أضفى على نسق الآية نغماً إيقاعيّاً متميِّزاً، فلو قدمنا كلمة ﴿مِنِّي﴾ على كلمة العظم نحو: (وهن مني العظم...) لشعرنا بها يشبه الكسر في نغم الآية وجرسها؛ ذلك أنّ هذه الكلمة في هذا الموضع الدقيق تتوازن إيقاعيّاً مع كلمة ﴿إِنِّي﴾ في صدر الآية هكذا ﴿رَبِّ إِنِّي ...وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾، وهكذا نلمس أن كلمة ﴿مِنِّي﴾ تحقق انسجاماً وتناسقاً وإيقاعاً داخليّاً موزوناً، وإنّ أي تغيير لموقعها يحدث اهتزازاً في إيقاعها الداخلي[٢].

ويرد التأكيد في لغتهم كثيراً وفق الحال الذي يستدعيه والمقام الذي يقتضيه، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون مجيئه زائداً في الكلام زيادة يستغنى عنها في الجملة.

والتوكيد غالباً يكون تبعاً لحال المخاطب، إمَّا بناءً على مقتضى الظاهر وهو ما يعرف بأضرب الخبر الثلاثة، وإمَّا على خلاف ذلك من حال المخاطب وهو ما يعرف بالأحوال التنزيلية. ولكن المتأمِّل يجد أسلوباً من التوكيد لا ينظر فيه إلى حال المخاطب إنَّما يراعى فيه حال المتكلم ونفسيَّته والدواعي والمؤثرات التي تتوارد عليه، ويمكن أن يحمل على ذلك جُلُّ ما ورد من أدعية الأنبياء - عليهم السلام- كقول الخليل: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [إبراهيم:٣٧]، وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ [إبراهيم:٣٨] .

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ـ لجلال الدين السيوطي: ٢/ ٢٦٩ .

(٢) ينظر: الإعجاز القصصي في القرآن، سعيد مطاوع ،ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

وقول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾[الشعراء:١١٧] .

وقول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾[المائدة:٢٥].

وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

وقول يونس عليه السلام: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٧].

وقول زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم:٤].

ففي هذه الدعوات يتضح أنَّ التوكيد ينظر فيه إلى حال النفس الراجية الضارعة إلى ربِّها، ومدى انفعالها بهذه الحقائق، وحرصها على إذاعتها وتقريرها، كما أحسها هؤلاء الأنبياء – عليهم السلام– مقررة أكيدة في أنفسهم[١] .

وإذا كانت الألفاظ المفردة تمثل دلالات مستقلّة فإن العبارة وتراكيب الجمل تمثلها مجتمعة، وقد جاءت تراكيب لغة دعاء الأنبياء في أسلوب رفيع تتسم بخصائص جمالية وفنية.

فمن جماليات ذلك الدقة في التعبير التي تتحقق بطرق عديدة ترتبط ببناء العبارة سواء أكان منها ما يتصل بالمفردات أم بالمعنى أم بطريقة النظم.

والعبارة في دعاء الأنبياء تأخذ دقّتها في تناسب نظمها ودقة حروفها وحسن ضمائرها بحيث لا يختلّ المعنى، بل يزداد دقة ووضوحاً، كقول إبراهيم عليه السلام مثنياً على الله بين يدي دعائه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء:٧٨-٨١].

والمتأمِّل لحروف العطف في نظم هذا الثناء يجد أنّ الخليل عليه السلام عطف الهداية على الخلق بحرف الفاء التي تدل على الترتيب بلا مهلة[٢]، فالله تبارك وتعالى خلق الخلق فهداهم مباشرة إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم. ثم عطف "السقي" على

(١) ينظر: خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني- محمد أبو موسى، ص ٩١ .

(٢) معاني الحروف ـ للرماني ، ص ٤٣.

"الإطعام" بحرف الواو التي تدلّ على الاشتراك في الحكم ومطلق الجمع فقال: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾،(١) ثم عطف الشفاء على المرض بحرف "الفاء" التي تدلّ كما سبق على الترتيب بلا مهلة، وذلك؛ لأنّ الشفاء يعقب المرض مباشرة بدون مهلة أو تراخٍ في الزمن. فقال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾، ثم عطف "الإحياء" على "الإماتة" بحرف "ثُمَّ" التي تفيد الترتيب مع التراخي في الزمان(٢)؛ لأنّ الإحياء يكون بعد الإماتة بمهلة وتراخٍ فقال: ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾، ولو عطفت هذه الجمل بعضها على بعض بالواو مطلقاً لتَمَّ المقصود، ولكنّ الذي ورد به التعبير أدقّ في المعنى وأليق ببلاغة الكلام(٣).

ومن مهامّ الدقة في التعبير الأداء الأمين لمعنى العبارة، فهي تجمع وتشمل معانيَ متعددة تصفها وترتبها في وحدة متكاملة، ومن ذلك تقديم الأهمّ على المهمّ في دعائهم، وهذا يردّ كثيراً في دعواتهم، ومن ذلك قول موسى عليه السلام: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [طه:٣٣-٣٥].

والمتأمل في هذا النظم يجد الدقة في التعبير حيث قدم التسبيح على الذكر، وسرُّ هذا التقديم -كما سبق- أن التسبيح تَنْزِيهه تعالى في ذاته وصفاته وبراءته عن النقائص، وهذا مقدم على غيره من الأمور؛ لأنّ من نزه الله تعالى من العيب لا يذكره إلا بما يليق به من التعظيم والإجلال. وتقديم الجار والمجرور﴿بِنَا﴾ على متعلقه ﴿ بَصِيرًا ﴾ لإفادة التخصيص، وقد ذهب أبو السعود إلى أنّ ذلك التقديم إنما جاء فقط لمراعاة الفاصلة(٤)، وكأنّه رأى أنّ التقديم هنا لا يفيد التخصيص لأنّ

---

(١) ينظر: الجنى الداني، ص: ١٥٨.

(٢) ينظر: مغني اللبيب، ١٥٩-١٦٠، وينظر: النحو الوافي لعباس حسن: ٣/ ٥٧٦.

(٣) ينظر: المثل السائر ٢/ ٤٦.

(٤) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٤.

بصر الله لا يغيب عن شيء من خلقه، فلا يصحّ قصره على المتكلّم. لكنّ المتأمّل حين يمعن النظر يجد أنّه يفيد التخصيص وأنّ البصر الذي عناه موسى عليه السلام هو ما خصه الله به من الاهتمام واللطف والعناية في جميع أطواره منذ كان طفلاً صغيراً حتى وقت التبتل إلى الله بهذا الدعاء كما هو صريح قوله تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه:٣٩]. فالتقديم ينبئ عن إحساس موسى عليه السلام بعناية خاصّة به تميزه عن غيره بمزيد عناية ورعاية(١).

وفي دعاء إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]

فتقديم اسم ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ على ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ جاء متناسباً مع حالهما وصورة صادقة لإحساسهما. فقد رفعا أصواتهما بالدعاء، وهذا مما سبيلُ إدراكِهِ السمعُ وهما يرفعان القواعد من البيت امتثالاً لأمر الله وإخلاصاً له، وهذا سبيل إدراكه العلم، فتوسّلا إلى الله تعالى بهاتين الصفتين على هذا النحو من الترتيب.ولعلّ المتأمّل في ذلك يلحظ أنّ التقديم والتأخير في العبارة يحمل مغزاه العميق ويضع المعنى في مكانه المحدد.

ومن مميزات العبارة في دعاء الأنبياء ما نلحظه من التناسق الجميل بحسن التذييل، حيث نلحظ التناسق في المعنى والربط بين أجزاء الجمل في التعبير وبعبارة أخرى يمكن أن نحدد جمال هذا التناسق من خلال ملاحظة انتهاء آية الدعاء بما يدع المعنى مستساغاً ومسايراً للسياق ومقبولاً في النفس .ولا يخفى المتأمّل في دعوات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أن يدرك براعة التخييل والتصوير في عباراتهم، فقد جاءت تشيع بالحركة والحياة.

---

(١) ينظر : من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية ، للخضري ، ص ٦٠.

تأمل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا ...﴾ [البقرة: ١٢٧- ١٢٩]، فهذه الآيات تصور لنا مشهداً حيّاً في استحضار سريع لبناء البيت من إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام- «إنّهما أمامنا حاضران نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان.... فنغمة الدعاء، وموسيقى الدعاء، وجو الدعاء، كلها حاضرة كأنّها تقع في اللحظة، حيّة شاخصة متحركة، وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل في ردّ المشهد الغائب الذاهب حاضراً يسمع ويرى، ويتحرك ويشخص وتفيض منه الحياة»(١).

المبحث الثاني : بلاغة التناسب في دعاء الأنبياء

المناسبة في اللغة المشاكلة ، يقال: بين الشيئين مناسبة وتناسب أي مشاكلة وتشاكل، وكذا قولهم : «ليس بينهما مناسبة أي مشاكلة» (٢). ولا يختلف المعنى اللغوي للمناسبة عنه في الاصطلاح، فالمناسبة في المعنى الاصطلاحي تعني المقاربة أو المشاكلة بين المعاني الكلية الحاصلة من التأليف أو بين الألفاظ والسياقات التي ترد فيها من حيث الشكل أو المعنى، وبتعبير آخر: هي وضع الكلام في موضعه الذي يليق به حتى يتمّ له الحسن والبلاغة(٣). وفائدة هذه المناسبة «جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١١٤.

(٢) لسان العرب ، ١/ ٧٥٦ ، مادة (نسب).

(٣) ينظر: المثل السائر: ٢/ ٢ ، وأنوار الربيع ، ٣/ ٣٤٦ .

حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء» [1].

ولهذا النوع من الإعجاز أهمية كبيرة في إدراك معاني القرآن وتدبر مقاصده وتذوق بلاغته والوقوف على أسراره ودقائقه. ولهذا قال الرازي رحمه الله: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط» [2].

ورأى البقاعي رحمه الله أن هذا النوع من الإعجاز هو«سرُّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني؛ لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادة على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النّفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان إلى النحو»[3].

ومن دقيق التناسب في دعاء الأنبياء: أن تجيء فاصلة الدعاء مناسبة لمضمونه، وهو ما يُسمَّى بـ"**تشابه الأطراف**" أو "**تناسب الأطراف**" وهو من قبيل مراعاة النظير، وذلك بـ«أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى» [4]، ويسمى التناسب والائتلاف[5].

«وتسميته بتناسب الأطراف أولى؛لمطابقته لمسماه» [6].ومن أمثلة ذلك دعاء الخليل عليه السلام: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩]، ودعاء موسى عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٥] ،ودعاء عيسى عليه السلام ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة:١١٤]، ودعاء سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ

---

(١) البرهان في علوم القرآن، ١/ ٦٢.
(٢) المصدر السابق، ١/ ٣٦.
(٣) نظم الدرر ١/ ٦.
(٤) الإيضاح: ص ٣٢٣.
(٥) ينظر: الإيضاح ص ٣٠٦ .
(٦) أنوار الربيع: ٤/ ١٩٥.

ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾[ص:٣٥] .ودعاء نبينا محمد ﷺ :﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[المؤمنون:١١٨] .

فالتناسب ظاهر بين: ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ ﴿أَنتَ ٱلتَّوَّابُ﴾، و﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ﴿أَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ ، ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ، و ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾﴿أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾. ﴿وَٱرۡحَمۡ﴾﴿أَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ، فكان آخر الدعاء مناسباً لأوله مستقرّاً في مكانه مرتبطاً بمعناه.

وقد يختم الدعاء بألفاظ دقيقة تناسب السياق اللغوي للدعاء بحيث لو جيء بألفاظ أخرى غيرها لاختلّ المعنى وتغيَّر، وقد لا تبدو المناسبة واضحة جلية إلا بعد تأمّل.

ومن ذلك دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[الممتحنة:٥]. فهذا الدعاء لم يختم بالمغفرة مع أنه ورد طلب المغفرة قبله؛ وذلك لأن مدار الطلب في الآية هو أن لا يجعلهم فتنة للذين كفروا، وهو محطّ الاهتمام كما هو واضح من السياق، وذلك يقتضي الختام بالعزة والحكمة كما هو ظاهر(١).

ومما يدلّ على أنَّ مدار الطلب هو خوفهم من الفتنة ما نلحظه من التجوز في النسبة الإيقاعية حيث عدّى الفعل ﴿تَجۡعَلۡنَا﴾ إلى ضميرهم المخبر عنه بـ ﴿فِتۡنَةٗ﴾ عن طريقة المجاز العقلي، والمعنى: لا تجعلنا سبب فتنة أو موضع فتنة للذين كفروا، وسرُّ العدول إلى التجوز بسبب شدّة شعورهم بالخوف من الفتنة وذلك يقتضي الختام بالعزة والحكمة.

وربما احتاج الأمر إلى إمعان دقيق لمعرفة سرّ اختتام الدعاء بصفة معينة يتبادر

---

(١) ينظر: ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي ١/ ٢٧٨، والبرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٩.

إلى الذهن أن ختمها بغير ذلك أولى، ومن ذلك دعاء عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨] ، فنظم هذا الدعاء قد يظن أنه يقتضي أن تكون الفاصلة "الغفور الرحيم"، ولكن المتأمل يدرك أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه فهو عزيز غالب وحكيم يضع الشيء في موضعه.

والآية مبنية على التسليم لله ـ سبحانه وتعالى ـ وتفويض الأمر إليه، وليس التعريض بطلب المغفرة، ولو قيل: "إنك أنت الغفور الرحيم"؛ لأوهم الدعاء بالمغفرة، ولا يسوغ الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه(١)؛ لأن الآية جاءت في سياق تبرئة عيسى عليه السلام من قول عظيم قالته طائفة من النصارى، ونسبته إلى عيسى عليه السلام من أنه طلب من الناس أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله. إضافة إلى أن ختم الدعاء بالمغفرة والرحمة يناسب الشرط الثاني (إن تغفر لهم) ولا يكون له تعلق بالشرط الأول (إن تعذبهم) في حين أن ختمه بـ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يناسب الشرطين معاً، فإن العذاب والمغفرة منوطان بالعزة والحكمة، والذي استحق العذاب لا يستطيع أن يغفر له إلا من كانت سلطته أعلى، وقوته أعظم، وعزته فوق كل شيء، ومن كان كذلك وجب أن يتصف بالحكمة التي يسندها العقل؛ فكان الختام بـ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أليق بهذا المكان وأنسب(٢).

ولا يفوت المتأمِّل في هذا التذييل أن يدرك فيه ملمحاً بلاغيّاً وهو ما يعرف بـ"الاحتراس" وهو: «أن يؤتى به في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه»(٣)، وهو

---

(١) ينظر: ملاك التأويل: ١/ ٢٧٧، والبرهان: ١/ ٩٠.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٤/ ٦٧، وتفسير القرطبي: ٦/ ٣٧٨، واللباب في علوم الكتاب: ٧/ ٦٢٥.

(٣) الإيضاح: ١٩٢. وينظر: معاهد التنصيص: ١/ ٣٦٣.

ما أشار إليه ابن القيم رحمه الله بقوله هو: «أن يذكر لفظاً ظاهره الدعاء بالخير والنفع وذلك بما في ضمنه مما يوهم الشر فيذكر فيه كلمة تزيل ذلك الوهم وتدفع ذلك الوهن» [(١)].

ووجه الاحتراس -كما سبق- أنّه لا يغفر لمن استحقّ العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه فهو العزيز الذي لا يعلو فوق سلطانه سلطان، ولا تحول قوة دون تعذيب من استحق العذاب من عباده، فإذا شاء أن يغفر لهم مع استحقاق العذاب فذلك مقتضى حكمته التي تضع كل شيء في موضعها، وليس لأحد الاعتراض عليه. وقد يخفى وجه الحكمة على بعض الناس فيتوهم - ظنّا- أنّه خلاف الأولى وليس كذلك، فكان في الوصف بالعزيز الحكيم احتراس حسن « لأن ترك عقاب الجاني قد يكون لعجز في القدرة أو لإهمال ينافي الحكمة فدفع توهم ذلك بذكرهما» [(٢)].

ومن بديع المناسبة في دعائهم : حُسْن الترتيب، فالألفاظ تتقدم في الكلام بحسب معانيها، وما يتداعى من تلك المعاني في العقل، ومن ذلك دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾[البقرة:١٢٩]. تأمّل بلاغة التناسب في إيراد الصفات وحسن ترتيبها، فأول ما يقرع السمع هو تلاوة القرآن والتلفظ به، ثم بعد ذلك يكون تعلم معانيه وتدبر مدلولاته [(٣)]، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة:١٨-١٩]. فإذا حصل تعلّم القرآن انتقل إلى الصفة الأخيرة وهي التزكية،

(١) الفوائد لابن القيم: ١٥٢.
(٢) تفسير الألوسي : ٧/ ٧١ ، وينظر: البرهان ، ١/ ٨٩، و الإتقان ، ٣/ ٣٠٨.
(٣) البحر المحيط ١/ ٣٩٢.

وتأخير صفة التزكية في نظم هذه الآية يكشف لنا أنّ هذه الصفة هي الغاية المنشودة والصفات السابقة وسائل للوصول إليها.

وفي دعاء الخليل ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

نلحظ أن إبراهيم عليه السلام قدَّم الأرض هنا على السماء؛ لأنّ الطبيعي أن يبدأ كلامه بما فيه حياته ومعاشه لا بما ليس له به علم فهو عليه السلام «حين ورد على لسانه هذا الدعاء واكب ترتيب اللفظ على لسانه ترتيب المعاني في جنانه، بادئاً بالأرض، وهي ما خفي من علمها على الإنسان دون ما خفي عليه من علم السماء»(١).

ومن الألفاظ التي وقعت بينها المغايرة تقديماً وتأخيراً ما جاء على لسان الحواريين وإجابة عيسى عليه السلام لهم فإنهم لما طلبوا المائدة ذكروا في تعليل طلبهم أغراضاً فقدموا ذكر الأكل فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ﴾ وأخروا بعد ذلك غرض الاطمئنان وزيادة التصديق فقالوا بعد ذلك : ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾ ، وأمّا عيسى عليه السلام فإنه لما طلب نزول المائدة وعلل طلبه قدم الأغراض الدينية وأخَّر غرض الأكل فقال: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا﴾ وترتيب هذه المعاني يعود إلى مراعاة سياق الحال، وهنا «يلوح مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية»(٢). ويبرز لنا الفرق واضحاً جليّاً بين مقامات الأنبياء، ومقامات الأتباع.

ومن دقيق المناسبة: أن يأتي بلفظ في موضع لفظ آخر؛ لمناسبة تتعلق بالسياق، ومن ذلك: وضع المصدر موضع الفعل لتحقيق المبالغة وتوكيد المعنى. كقوله تعالى

---

(١) من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية ـ محمد الأمين الخضري ، ص١٤ .

(٢) تفسير الرازي: ١٢/ ١٠٩.

مخـــبراً عـــن يوســـف عليه السلام: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوســـف: ٢٣].

فعبَّر يوسف عليه السلام بالمصدر ﴿مَعَاذَ﴾ في موضع الفعل "**أعوذ**" فـ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ مصـدر والمعنـى: أعـوذ بـالله أن أفعـل هـذا[١]. كـما ذكـر ذلـك البغـوي[٢]، والزمخشري[٣]. وهو دعاء من يوسف عليه السلام أن يعيذه ربه ويعصمه من هذه الفتنة. وإنَّما كان التعبير بالمصدر هنا دون الفعل؛ لأن المقام في هذا الموضع مقام إغراء عظيم من امرأة العزيز فجاء التعبير بالمصدر للمبالغة في الاستعاذة دالاًّ على ما كان فيه من شدّة الموقف، ومن هنا كان العدول إلى المصدر ليتفق بها وصف به من مبالغة لا تكون لو عُبِّر بلفظ الفعل ذاته.

وقد أشار ابن الأثير إلى علّة التعبير بالمصدر عن الفعل بقوله: «ومن حذف الفعل باب يسمى باب إقامة المصدر مقام الفعل، وإنما يفعل ذلك لضرب من المبالغة والتوكيد»[٤].

ومن بديع هذا العدول دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]. فعـبَّر الخليـل عليه السلام باســم الفاعــل ﴿مُقِيمَ﴾ في موضع الفعل " أقيم "، وإنما كان التعبير باسم الفاعل هنا ؛ لأنّ هذا الدعاء جاء بعد رفع الخليل عليه السلام لقواعد البيت وبنائه، ثم دعائه لربه أن يجعله آمناً

(١) معاني القرآن وإعرابه – الزجاج: ٣/ ١٠١. وينظر: تفسير السعدي: ص ٣٩٦.

(٢) تفسير البغوي: ٤/ ٢٢٨.

(٣) الكشاف: ٢/ ٤٢٩، ٤٦٥.

(٤) المثل السائر: ٢/ ٩٨.

لتقيم أمته الصلاة كما قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم :٣٧] وهو دعاء لأمته بإقامة الصلاة بصيغة الفعل المضارع، ثم كرر الدعاء لنفسه بإقامة الصلاة للإشعار بأنه المقتدى في ذلك وذريته أتباع له، وعبَّر باسم الفاعل ﴿مُقِيمَ﴾ للإشعار بالدوام والاستمرار وتحقيق المبالغة في الطلب، ومن هنا كان العدول عن الفعل إلى اسم الفاعل لمناسبة السياق.

وقد تكون دقة المناسبة في نقل اللفظ عن وظيفته الأصلية دون حذف لمناسبة تتعلق بالسياق اللغوي.

ومن بديع هذا التناسب قول زكريا عليه السلام: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم:٤]، والأصل في ترتيب الكلام العادي "واشتعل شيب الرأس"، ثم نقل الفاعل "شيب" عن وظيفته الأساسية ونصب على التمييز، وقد علل عبد القاهر الجرجاني هذا العدول بإفادة الشمول والاستغراق، إضافة إلى لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى - كما سبق ذلك[1] -، والمتأمل في السياق الذي ورد من خلاله الدعاء يجد أن زكريا عليه السلام أتى في معرض دعائه بمقدمات يمتنع معها الوصول إلى النتيجة التي هي مناط دعائه. فحصول الذرية في العرف والعادة له أسباب مخصوصة فلما تاقت نفسه للذرية مع فقدان تلك الأسباب لم يكن أمامه إلا طلب هبة محضة من غير توسط شيء من تلك الأسباب فعمد إلى وصف حاله بأنّه بلغ من الكبر عتيّا. والعتيّ: «هو اليُبْسُ والجَسَاوَةُ في المفاصِلِ والعظام كالعُوْدِ القاحِل»[2].

وإذا كان بلغ هذا المبلغ من مدارج الكبر ومراتبه إلى حدّ أن وهن منه العظم فلا غرو أن الشيب قد سيطر عليه سيطرة تامة حتى استغرق كل رأسه وعمَّ جملته،

(١) ينظر: ص ٢٥٢، ٢٥٣ من البحث.

(٢) الكشاف: ٣/ ٨. وينظر: اللباب في علوم الكتاب: ١٣/ ١٨.

ومن هنا جاء الأسلوب القرآني معبراً عن هذا المعنى بنقل الفاعل عن وظيفته الأساسية التمييز بقوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ فيلتقي هذا المعنى الذي يفيده السياق مع الخاصة الدلالية التي تفيد العموم والشمول التي أكدّ عليها عبد القاهر الجرجاني كما سبق.

ومن دقيق المناسبة: ما تدلّ عليه صيغة اللفظ من خلال وضعها في سياق معين، فالتنكير غالباً يعطي الاسم دلالة على الشيوع والعموم، والتعريف غالباً يمنحه دلالة على التخصيص والتحديد، وقد جاء ذلك مناسباً للسياق. ففي دعاء الخليل عليه السلام جاء لفظ "البلد" منكّراً في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦]. ثم جاء معرَّفاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

وقد اختلف العلماء في تعليل المغايرة بين اللفظين، فذهب الإسكافي إلى أن سبب ذلك يرجع إلى أحد أمرين أولهما: أن يقال الدعاء الأول وقع ولم يكن المكان قد جعل بلداً فكأنّه قال: اجعل هذا الوادي بلداً آمناً، ثم قال بعد ذلك: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [إبراهيم:٣٧]. وأمّا الدعاء الثاني فقد جاء وقد جعل بلداً فكأنه قال: اجعل هذا المكان الذي صيرته كما أردت ذا أمن على من آوى إليه فعرف حين عرف بالبلدية، ونكر حيث كان مكاناً من الأمكنة غير مشهور بالتمييز عنها بخصوصية العمارة والسكنى.

وأمّا الأمر الثاني : فهو أن تكون الدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بلداً، وإنّما طلب من الله أن يجعله آمناً، والقائل يقول: اجعل ولدك هذا أديباً، وهو ليس يأمره بأن يجعله ولداً؛ لأنّ ذلك ليس إليه وإنما يأمره بتأديبه فكأنّه قال: اجعله بهذه الصنعة، فذكر الوصف وأتبعه الصفة فكذلك قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ﴾

[إبراهيم :٣٥] ، وتكون الدعوة واحدة قد أخبر الله عنها في موضعين(١).

واختار ابن الزبير رأياً مختلفاً عمّا سبقه فهو يرى أنَّ اسم الإشارة الذي هو ﴿هَٰذَا﴾ في سورة البقرة لم يقصد بتعيينه اكتفاءً بالواقع قبله من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥] وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد فورد اسم الإشارة غير مفتقر إلى التابع المبيِّن حسنه في أسماء الإشارة اكتفاء بما تقدَّمه مما يحصل منه مقصود البيان فانتصب ﴿بَلَدًا﴾ مفعولاً ثانياً، و﴿ءَامِنًا﴾ نعتاً له، واسم الإشارة مفعولاً أول غير محتاج إلى تابع لقيام ما يقوم مقامه، ولو تعرَّف لفظ ﴿بَلَدًا﴾ بالألف واللام، وجرى على اسم الإشارة لم يكن ليحرز بياناً زائداً، بل كان يكون كالتكرار فورود الكلام على ما هو عليه أحرز للإيجاز وأبلغ في المقصود، وآية إبراهيم لم يتقدم فيها ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع المعرَّف بجنس ما يشار إليه، فلم يكن بدٌّ من إجراء البلد عليه تابعاً بالألف واللام على المعهود الجاري في أسماء الإشارة من تعيين جنس المشار إليه(٢).

وعندما نمعن النظر في السياق نجد أنَّ هذه المغايرة جاءت حسب مناسبة السياق، فدعاء الخليل عليه السلام في البقرة جاء في سياق معانٍ تدلّ على العموم والشيوع؛ إذ يخبر سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم أنه جعله إماماً للناس كافة، وأنّه جعل البيت مثابة للناس وأمناً لهم، ثم أخبر سبحانه أنه يرزق فيه جميع الناس من آمن منهم ومن كفر، فقال معقباً على دعاء إبراهيم الخليل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦].

---

(١) ينظر : درة التنزيل – الإسكافي ص ١٦.

(٢) ينظر : ملاك التأويل: ١/ ٢٣٤-٢٣٥.

فناسب هذا التعميم أن يأتي بلفظ ﴿بَلَدًا﴾ في صورة التنكير؛ ليتفق بها يدلّ عليه من تعميم وشيوع يتناسب ودلالة السياق.

أمَّا السياق في سورة إبراهيم فلم يكن فيه تعميم بل قام على التخصيص إذ يدعو فيه الخليل عليه السلام ربَّه أن يأوي بعض الناس إلى بيته المحرم لتكون ذريته في جوارهم وأن يرزقهم رزقاً من لدنه كما قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

فقال: ﴿أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: أفئدة الناس، داعياً أن يرزقهم الله من الثمرات، فكان الدعاء خاصّاً بأهله وذريته ومن يسكنون معهم فناسب تعريف البلد ليدلّ على هذا التخصيص والتحديد(١).

وقد اقترب البقاعي رحمه الله من وجه هذه المناسبة عندما أشار إلى ما في سياق دعاء الخليل في سورة البقرة من تعميم وشيوع بخلاف ما جاء في سورة إبراهيم(٢).

المبحث الثالث : أسرار التشابه والتنوع في دعاء الأنبياء

في هذا المبحث سأتناول – إن شاء الله– دعوات الأنبياء المتشابهة التي تكررت في القرآن الكريم وألفاظها متقاربة إلى حدّ كبير، ولكن وقع في بعضها زيادة ألفاظ أو تقديم وتأخير أو إبدال كلمة مكان كلمة مما يوجب اختلافاً بين الدعوات التي تكررت مع توجيه ذلك بلاغيّاً.

والمتشابه اللفظي في القرآن الكريم من الموضوعات التي شغلت عدداً كبيراً من علماء التفسير والبيان فعكفوا على تدبر ما في القرآن، من ذلك، وبيان موجبات

---

(١) ينظر: المناسبة في القرآن دراسة لغوية أسلوبية ـ مصطفى شعبان، ص ١٧٢-١٧٣.

(٢) ينظر: نظم الدرر ١/ ٢٤١.

اختلاف التعبير بينها، وتوجيه معانيها ردّاً على بعض مطاعن الملحدين الذين رأوا في المتشابه اللفظي في القرآن تكراراً ينافي بلاغة القرآن ويناقض إعجازه.

وتتفق تعريفات البلاغيين على أنّ المتشابه اللفظي من آيات القرآن هو: أن يتكرر مجيء الآيات القرآنية في ألفاظ متشابهة وصوراً متعددة وفواصل مختلفة مع اتحاد المعنى لغرض بلاغي(1).

ومن أمثلة ذلك ما جاء في سياق دعاء نوح عليه السلام على قومه وطلب النصرة من ربّه حيث تعددت صيغ دعائه عليه السلام، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾[المؤمنون:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾[القمر:١٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[نوح:٢٦]. فهذه الدعوات تتشابه في كثير من أجزاء النظم، وقد وقع فيها إبدال وتغير. ففي "سورة المؤمنون" جاء الدعاء بلفظ ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾[المؤمنون:٢٦]، وهو متناسب مع موقف قومه الوارد في السورة ذاتها حيث لم يسبق تصريح من قومه بإهانته أو التضييق عليه أو إيذائه، وغاية ما ورد من مجابهته قولهم: ﴿ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾[المؤمنون:٢٥]. وهذا اقتضى أن يقتصر على طلب النصرة من ربّه دون الدعاء عليهم بالهلاك أو العذاب ونحو ذلك.وفي سورة القمر جاء الدعاء بلفظ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾[القمر:١٠]، وفي هذا الدّعاء جاء طلب النصرة من ربه والغلبة مع الانتقام وهذا مستفاد من قوله: ﴿فَٱنتَصِرۡ ﴾ أي بمعنى: انتقم(2).

وزيادة بعض الحروف في لفظ ﴿فَٱنتَصِرۡ ﴾ يقابلها زيادة في المعنى، كما أنَّ التعبير بأنّه ﴿مَغۡلُوبٞ ﴾ وصف لضعفه ومدعاة لطلب النصرة وسرعة الانتقام.

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٤٥، ومعترك الأقران للسيوطي: ١/ ٨٥، وإغاثة اللهفان في ضبط متشابهات القرآن للوارقي: ص ٣٧ . ومن بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم لمحمد علي الصامل: ص ١٣.

(٢) ينظر: البحر المديد: ٦/ ٦٢٩، وتفسير أبي السعود: ٦/ ٧٨، وزاد المسير لابن الجوزي: ٨/ ٩٢ .

وهذه الألفاظ جاءت متوافقة مع موقفهم الذي جاء في سورة القمر حيث جابهوه بالعناد ووصموه بالجنون وزجروه وعنفوه كما قال تعالى واصفاً حال قومه: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر:٩]. وأمّا دعاء نوح عليه السلام الوارد في سورة نوح فهو أعنف دعواته وأشدها؛ إذ طلب من ربه تعالى أن ينزل عليهم الهلاك والعذاب بعد أن اجتهد في دعوتهم وبذل لهم جميع الوسائل فما زادهم ذلك إلا عناداً وكفراً وجعلهم يتواصون بالعكوف على أصنامهم كل ذلك جعله يدعو عليهم دعاءً يتوافق وموقفهم الوارد في صدر السورة وجاء مناسباً لسياق الآيات.

وهكذا نلمس سرّ التباين والاختلاف في دعاء نوح عليه السلام في المواضع الثلاثة من قصَّته.

وقد تشابه دعاء نوح عليه السلام بقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح:٢٤] مع دعائه في آخر السورة ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح:٢٨]، مع اختلاف الفاصلة بين الدعاءين، وقد جاء الدعاء في الآيتين مناسباً لموضعه وسياقه.

وعند النظر إلى نظم الآية الأولى نجد أنها جاءت بزيادة الضلال الذي هو العدول عن الطريق المستقيم وعدم الهداية، وذلك أنَّ نوحاً عليه السلام بذل كلَّ ما في وسعه في سبيل دعوتهم، فلم يزدهم ذلك إلا عدولاً عن الطريق ونكوساً عن الهداية، ثم دعا عليهم أن يزيدهم الله ضلالاً بسبب ضلالهم وإضلالهم بعد أن أمروا أتباعهم بالتمسك بعبادة الأصنام وأضلوا الناس عن الهداية؛ لما قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾، وأنهم قد ﴿أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، فناسب الدعاء ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾.

وأمّا الدعاء ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾، فإنّ معناه زدهم هلاكاً على هلاك وعذاباً فوق عذاب بعد أن دعا عليهم بالهلاك بقوله: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

وهذا هو سرُّ التنوع في الدعاء عليهم، وهو خلاصة ما أجاب به ابن الزبير

الغرناطي إذ قال: «لسائل أن يسأل عن وجه اختلاف ما دعا به نوح عليه السلام على قومه في الموضعين؟. والجواب عن ذلك أن نوحاً عليه السلام لما ذكر أولاً في إخبار الله سبحانه- عن عصيان قومه له، وقولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي لا تتركوها: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ إلى قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أردف هذا بما يناسبه من الدعاء في زيادة ضلالهم ولم يدع هنا بهلاكهم. وأمَّا الآية الثانية فقد تقدمها دعاؤه عليه السلام بهلاكهم وأخذهم في قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ فأتبع ذلك بما يناسبه تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي هلاكا»(١).

ومن متشابه دعاء الأنبياء ما جاء على لسان أيوب عليه السلام حيث ورد دعاؤه في سورتين هما (الأنبياء) و(ص) ووقع بين الدعاءين فروق بإبدال لفظة مكان أخرى.

ففي سورة الأنبياء جاء إخبار الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

وفي سورة (ص) أخبر عنه - سبحانه- بقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١].

والمتأمِّل في هذين الدعائين يلحظ التشابه بينهما مع ورود بعض الاختلاف في الدعاء، ومن ذلك اختلاف نداء أيوب عليه السلام في نسبة المس الذي أصابه إلى فاعله، ففي سورة الأنبياء ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾. وفي (ص): ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾، وفي كلا التعبيرين حسن أدب مع الله تبارك وتعالى حيث لم ينسب الضرّ إلى ربه مع أن الله هو فاعل ما أصابه، ومردّ ذلك الاختلاف في كلّ موضع إلى سياق الآيات من السورة، ففي سورة الأنبياء كان الإخبار عمّا أصابه من ابتلاء مسوقاً على سبيل الإيجاز

(١) ملاك التأويل : ٢/ ٩١٢.

والاختصار.

وسورة الأنبياء جاءت مبينة على الحرص على إيراد موضع النعمة من الله تعالى على أنبيائه بنصرتهم وإغداق الرحمة عليهم بعد استعانتهم به ودعائهم له عندما يصيبهم البلاء[(١)]؛ ولهذا جاءت دعوة أيوب عليه السلام في الأنبياء بعدم الإفصاح عمّا أصابه من البلاء وذكره مجهلاً من دون تصريح فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ أي مطلق الضرّ.

وأمّا في (ص)، فقد أسند المس إلى الشيطان وذلك؛ لأنّ السورة بكاملها جاءت في بيان صبر الأنبياء على ما يصيبهم من فتن، وبيان أنهم توّابون أوّابون لربهم[(٢)].

فكان ذلك مدعاة لشيء من بيان ما أصاب أيوب عليه السلام من البلاء والامتحان، وتصوير بلائه ونسبة ما أصابه إلى الشيطان أليق والصبر على أذى الشيطان أعلى من الصبر على الضُّرّ- بالضمّ- الذي هو الضرر في النفس من مرض أو هزال[(٣)]. والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك.

وفي سياق الحديث عن دعاء زكريا عليه السلام أن يهبه ولداً جاء قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]. وجاء قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٢-٤].

وجاء قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

والمتأمّل في سياق هذه الآيات يجد أنها اتفقت في موضوعها وجاءت بألفاظ متشابهة مع اختلاف في النظم بإبدال لفظة مكان أخرى واختلاف فواصل الآيات.

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ٥/ ١٠٤.

(٢) ينظر: درة التنزيل: ١٦٧، وملاك التأويل: ٢/ ٨٤٣.

(٣) لسان العرب، ٤/ ٤٨٦، مادة (ضرر).

ومن تلك الفروق جاء التعبير بطلب الولد في آل عمران بلفظ ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، وفي سورة مريم جاء بلفظ ﴿وَلِيًّا﴾، وفي الأنبياء بلفظ ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ فقد قيل: إنه لما كان السابق على القصة في آل عمران ناطقاً بالذرية الطيبة في قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[آل عمران: ٣٤] وما كان من مشاهدة زكريا لاصطفاء الله لآل عمران كان من المناسب أن يدعو بقوله : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾

ولما كان طلب الولد في سورة مريم معللاً بقوله : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ [مريم: ٥] أي: خفت فعل الموالي وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي. كان من المناسب أن يدعو بعد ذلك بقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[مريم: ٥-٦] ليطلب ولياً يخلفه في وراثة الدِّين.

وفي الأنبياء جاء قوله تعالى على لسان زكريا: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] ؛ وذلك بعد أن تضمنت السورة الكثير من قصص الأنبياء الذين أيدهم الله بذريتهم، ففي قصة إبراهيم جاء قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وفي قصة داود جاء ذكره مع ابنه سليمان، مما يدل على السورة جاءت مبينة منة الله تعالى بتأييد الأنبياء بأبنائهم مما اقتضى التعبير في قصة زكريّا بقوله: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾، فاستجاب الله له فوهبه يحيى كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ [الأنبياء: ٩٠]. [1]

وقد تميز متشابه القرآن في دعاء الأنبياء بميزات أسلوبية تتمثل في ملاءمة المفردة لسياقها الواردة فيها، بما لها من دقيق المعاني وخفي الإشارات.

---

(١) ينظر: متشابه النظم في قصص الأنبياء مقارنة وتحليل ، عبد الغني الراجحي ص،٤١٤ رسالة دكتوراه ، رقم ٧٦ ، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين ، القاهرة .

وقد اقتضى تنوع أدعية الأنبياء في القرآن تنوع الأسلوب تبعاً لاقتضاء مقام الخطاب، كما جاء هذا التنوع زاخراً بجماليات النظم والبيان، وهو وارد على ما يقتضيه المقام دون تناقض أو اضطراب.

الخاتمة

تناولت في الفصول السابقة تحليل دعوات الأنبياء الواردة في القرآن تحليلاً بلاغياً، يكشف عن خصائص تلك الدعوات، وأسرارها البيانية، وما فيها من تشابه وتنوع وتناسب.

وقد بدأت الحديث بتمهيد تناولت فيه مفهوم الدعاء، واستعمالاته اللغوية وأنواعه، إضافة إلى مكانة دعاء الأنبياء الوارد في القرآن الكريم ،واتبعت ذلك بالفصل الأول وفيه تناولت مقاصد دعاء الأنبياء، ثم جاء الفصل الثاني وفيه تناولت الخصائص البلاغية لهذه الدعوات.

وبعد هذه المسيرة أرصد بعض الحقائق والنتائج التالية:

- دعاء الأنبياء في القرآن الكريم متميز في بنائه المحكم وصياغته الدقيقة وهي تمثل السمات العامة لأسلوب القرآن الكريم.

- تضمنَّت دعوات الأنبياء مطالب سامية ومقاصد عالية من خيري الدنيا والآخرة.

- جاءت دعوات الأنبياء تنبئ عن قدر كبير من المشاعر النفسية، كالرجاء والخوف والرغبة والرهبة والتعظيم والإجلال والخضوع لله تعالى.

- اتسمت دعوات الأنبياء بالوضوح والجمال، كما اتسمت بالخصائص التصويرية من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية.

- المتأمل في دعواتهم يلحظ إيثار لفظ (الرب)؛ لما في ذلك من استشعار معاني التربية والإنعام والتفضل على المربوب.

- من خصائص الألفاظ في دعائهم الدقة في الاختيار، ووضع المفردة في

موضعها المناسب.

- من خصائص التعبير في دعواتهم تنوع أساليبهم بين الإنشاء والخبر والمزاوجة بين اختيار الجمل الاسمية والفعلية والربط بين تراكيبهم.

وفي الختام أوجه أنظار الباحثين إلى أهمية الدراسات البلاغية التطبيقية للقرآن الكريم، ففي ذلك علم غزير وذخائر بيانية عالية، وسيظل القرآن الكريم كتاباً معجزاً لا تنفد عجائبه ولا تنتهي أسراره.

قائمة المصادر والمراجع

- **الإتقان في علوم القرآن** ـ جلال الدين السيوطي ، مطبعة الحلبي القاهرة عام ١٣٨٩ هـ
- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، المعروف بتفسير أبي السعود، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **الأصول في النحو** لابن السراج، تحقيق : د.عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت. ط٣/ ١٩٨٨م.
- **أضواء البيان** ـ محمد الأمين الشنقيطي ، تحقيق نخبة من أهل العلم ، عالم الكتب مكة المكرمة، عام ١٤٢٦ هـ
- **إعراب القرآن** للنحاس ، تحقيق د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م، بيروت.
- **إعراب القرآن وبيانه**، لمحيي الدين درويش، دار الإرشاد للشئون الجامعية، دار ابن كثير، بيروت. ١٤١٥هـ.
- **إغاثة اللهفان في ضبط متشابهات القرآن** للوارقي، مكتبة الحياة الإسكندرية.
- **أنوار الربيع في أنواع البديع**، لصدر الدين بن معصوم ، تحقيق شاكر هادي ، عام ١٣٨٨ هـ
- **الإيضاح في علوم البلاغة**، للخطيب القزويني. دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤/ ١٩٩٨م.
- **البحر المديد**، لابن عجيبة، دار الكتب العلمية، بيروت. ط٢، ٢٠٠٢ م= ١٤٢٣ هـ.
- **بدائع الفوائد**، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وآخرين، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، ط١، ١٤١٦ - ١٩٩٦م.
- **البداية والنهاية**، لابن كثير ، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، الجيزة، ط١/ ١٤١٧هـ= ١٩٩٨م.
- **البرهان في علوم القرآن**، لبدر الدين الزركشي- ، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ط١/ ١٣٧٦ هـ= ١٩٥٧م.
- **البلاغة العربية**، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دمشق، دار القلم، ط١.
- **بيان إعجاز القرآن** ـ أبو سليمان الخطابي ، تحقيق محمد خلف الله ، دار المعارف القاهرة ط٢ عام ١٣٨٧ هـ
- **التحرير والتنوير**، لابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، ط/ تونس ١٩٩٧م.
- **تفسير البحر المحيط**، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق : الشيخ عادل أحمد وآخرين ، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت، ط١، - ١٤٢٢ هـ= ٢٠٠١م.

- **تفسير القرآن الحكيم** المعروف بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

- **تفسير القرآن الكريم**، لابن القيم دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٤١٠هـ.

- **تفسير اللباب في علوم الكتاب**، لابن عادل الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١/ ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨م.

- **تفسير روح البيان**، لإسماعيل حقي الحنفي، دار إحياء التراث العربى.

- **تلخيص البيان في مجاز القرآن**- الشريف الرضي، ط١ عام ١٩٨٦ م

- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** المعروف بتفسير السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١/ ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.

- **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)** لأبي عيسى الترمذي، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون، مع تصحيحات الألباني، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- **الجامع لأحكام القرآن**، المشهور بتفسير القرطبي – القرطبي . تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٣م.

- **الجنى الداني في حروف المعاني** – للمرادي

- **حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي**. شهاب الدين الخفاجي ، دار صادر بيروت .

- **خصائص التراكيب -دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**- محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٢٥هـ.

- **خصائص التعبير القرآني**، عبد العظيم المطعني، دار وهبة، القاهرة، ط١.

- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، للسمين الحلبي تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط١/ ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- **دلائل الإعجاز**، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق : د.محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١/ ١٩٩٥م.

- **دلالات التراكيب**، . محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة القاهرة ط٢ عام ١٤٠٨ هـ

- **روح المعاني** المعروف بتفسير الألوسي -شهاب الدين الألوسي،دار إحياء التراث بيروت .

- **زاد المسير في علم التفسير** لابن الجوزي، المكتب الإسلامي – بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.

- **زاد المعاد في هدي خير العباد**، لابن القيم ، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت. ط٢٧، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

- **الزاهر في معاني كلمات الناس،** لأبي بكر الأنباري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/ ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.
- **سنن النسائي الكبرى،** للنسائي، تحقيق: : د.عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية - بيروت. ط١، ١٤١١هـ
- **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك،** لابن عقيل
- **شعب الإيمان** للبيهقي، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.
- **الصحاح** - الجوهري ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط٢ عام ١٣٩٩ هـ
- **الصناعتين الكتابة والشعر،** لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م. بيروت.
- **الفتاوى الكبرى** لابن تيمية ، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير،** للشوكاني ، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، ط١/ ١٤١٢هـ=١٩٩٢م.
- **الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية،**- لمحمد بن علاّن المكي. دار الفكر، ط ١٣٩٨هـ= ١٩٧٨م.
- **الفروق اللغوية،** لأبي هلال العسكري ، تحقيق لجنة التراث العربي ، بيروت ط/ ٥ عام ١٤٠٣هـ
- **الفوائد** لابن القيم، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٣/ ١٣٩٣ - ١٩٧٣م .
- **في ظلال القرآن** - سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ط١٧ عام ١٤١٢ هـ
- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،** للزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي،إحياء التراث العربي، بيروت.
- **لسان العرب** لابن منظور،، ط١/ دار صادر - بيروت.
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،** لضياء الدين ابن الأثير، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ، ١٩٩٥م.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:** لابن عطية الأندلسي، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين،** لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار

الكتاب العربي – بيروت، ط٢/ هـ١٣٩٣ – ١٩٧٣م.

- **مدارك التتريل وحقائق التأويل** – تفسير النسفي، لأبي البركات النسفي، تحقيق مروان الشعار، دار النفائس، بيروت ٢٠٠٥م_

- **المطول على التلخيص** ـ سعد الدين التفتازاني ، بدون بيانات .

- **المعاني في ضوء أساليب القرآن**، عبد الفتاح لاشين ،المكتبة الأميرية ط٤ عام ١٩٨٣ م

- **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، للشيخ عبد الرحيم العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، ١٣٦٧هـ ١٩٤٧م. بيروت.

- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، لابن هشام ، تحقيق : د.مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط٦/ دار الفكر، بيروت.

- **مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير**، للفخر الرازي. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.

- **ملاك التأويل** ـ ابن الزبير الغرناطي، تحقيق سعيد الفلاح ، دار الغرب الإسلامي ط١عام ١٩٨٣م

- **من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن)**، عبد الفتاح لاشين، مكتبة عكاظ، جدة عام ١٤٠٣هـ، ط١.

- **من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة**، محمد الخضري ، عام ١٤١٤ هـ

- **من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم**، د. محمد علي الصامل، دار إشبيليا، الرياض عام ١٤٢٢هـ.

- **المناسبة في القرآن دراسة لغوية أسلوبية** ـ مصطفى شعبان ، الاسكندرية عام ١٤٢٧ هـ

- **النحو الوافي**، لعباس حسن، ط ،١دار المعارف ، القاهرة .

- **النداء في اللغة والقرآن**، أحمد محمد فارس، دار الفكر، بيروت .

- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** – البقاعي، تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

- **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، للسيوطي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، بمصر.

فهرس المحتويات